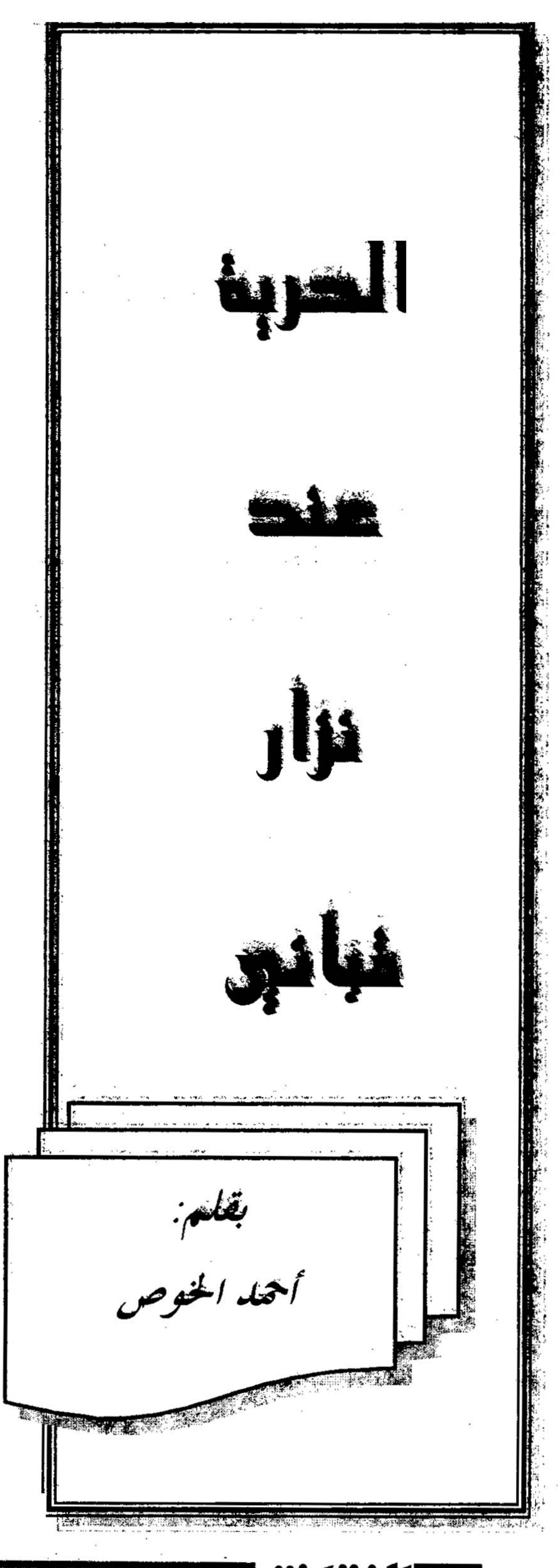


الحرية مطلب إنساني أعلى من جميع المطالب الأخرى التي يحتاجها الإنسان من أجل حياة كريمة للفرد في المجتمع والأسرة في الشعب أو الأمة، والأمة العربية بين سائر الأمم والشعوب لأن الله قد كرَّم الإنسان حين قال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ.. ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وما هذا التكريم من الله سبحانه وتعالى إلا الحرية التي وهبه إياها، فالإنسان هو الكائن الوحيد المسؤول عن تصرفاته وأعماله ولا حرية بلا مسؤولية.

ويقول عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً!؟»

يقول ابن خضرويه: «في تمام العبودية يعني الحرية وفي تمام الحرية يعني العبودية".

ويقول جان بول سارتر: «تبدأ حريتك عندما تنتهي حرية الآخرين».

وقال أحمد شوقي:

وللحريَّةِ الحمراء بابٌ
بكلِّ يدٍ مضرَّجةٍ يُدق

أما نزار قباني شاعر المرأة والحب والجمال فيرى أن الحرية هي المشكلة الوحيدة على الرغم من أنه يأكل الطعام وفي بيته توجد المؤونة من حنطة وزيت، لكن مشكلته تبقى كما يقول في قصيدة «المشكلة»:

يا سائلي عن حاجتي
الحمدُ لله على الصحَّة والرغيفْ
وما تقولُ الصُحُفُ اليوميَّهْ..

عندي صغارٌ يملأون البيتْ
وزوجةٌ وفيَهْ.
وفي الخوابي حنطةٌ وزيتْ.
لكنّما مُشْكلتي..
ليستْ مع الخبز الذي آكلُهُ
ولا مع الماء الذي أشربُهُ
مُشكلتي الأُولى هي الحُريَّهْ...

وإذا كانت الحرية مطلب الشاعر الأساسي، فإن الشعر الذي يسير مع الحكام وأصحاب الأموال ويساير هذا وذاك هو شعر عفّى عليه الزمن، لأن الشاعر الحقيقي من يحدث الزلزال من تحت الطغاة الذين لا ضمير لهم ولا ذمة، فيقول مخاطباً أصدقاءه في قصيدة «تقرير سرّي جداً.. من بلاد قَمعِسْتَان»!!.

يا أصدقائي:
ما هو الشعْرُ إذا لم يُعْلِنِ العصيانْ؟
وما هو الشعرُ إذا لم يُسقِط الطُغاةَ.. والطُغْيانْ؟
وما هو الشعرُ إذا لم يُحدث الزلزالَ
في الزمانِ والمكانْ؟
وما هو الشعرُ إذا لم يخلعِ التاجَ الذي يلبسُهُ
كسْرى أنوشْروانْ؟

والحرية هدف إنساني نبيل لا يرتقي إليه إلا الإنسان الحر الذي يضع نصب عينيه حريته أولاً وحرية شعبه ووطنه ثانياً، لأن الحرية كالاستقلال تؤخذ ولا تعطى، يعتبر نزار قباني أن الحرية مطلب لكل كائن على الأرض حتى الحيوان والأسماك وكل شيء، فيقول في قصيدته «من معادلات الحرية»:

لو أنَّ كلَّ عصفورٍ بحاجةٍ إلى تصريحٍ من وزير الداخليَّهْ..
ليطيرْ..
ولو أنَّ كلَّ سمكةٍ بحاجةٍ إلى تأشيرَة خروجْ
لتسافرْ..
لانقرضتِ الأسماكُ والعَصافيرْ...

أما في قصيدته «كتاباتٌ على جدران المنفى» فيسائل سيدته: كيف عليه أن يأكل من طعام الحكام بينما أولاده يموتون جوعاً، ويعيشون شقاءً، ويستقبلون قلقاً.:

يا سيِّدتي:
كيفَ أُبَشِّرُ بالحُريَّة..
حينَ الشمسُ تواجهُ حكماً بالإعدَامْ؟
كيفَ سآكُلُ من خبزِ الحُكَّامِ..
وأولادي من غيرِ طعَامْ؟

وإذا كانت الدوائر الاستعمارية قد اشترت الصحافة والصحفيين بأبخس الأثمان، حيث سقط هؤلاء الصحفيون في بلاد الغرب في إنكلترا وفرنسا، هذه البلاد التي ما عرفتهم إلا بعد أن باعوا أنفسهم للشياطين، يقول نزار معبراً عن ذلك في قصيدته «أبو جَهْل .. يشتري (فْليت ستريت)..»:

هل سَقطَ الكبارُ من كُتَّابنا

في بورصة الريَالْ؟..

هل أصبحتْ إنْجلتَرا عاصمه الخلافه؟

وأصبحَ البترولُ يمشي ملكاً..

في شارعِ الصحافَهْ؟؟

جرائدٌ..

جرائدٌ..

جرائدٌ..

تنتظرُ الزبُونَ في ناصيةِ الشارع،

كالبَغَايا...

جرائدٌ، جاءتْ إلى لندنَ،

كي تُمارِسَ الحُريَهْ...

تحوَّلَتْ – على يَدِ النفْط –

إلى سَبَايَا...

جِئنَا لأوروبَّا..

لكي نشربَ من منابعِ الحضَارَهْ

جِئنَا.. لكيْ نبحثَ عن نافذةٍ بَحْرِيَّةٍ

من بعد ما سَدُّوا علينا عُنُقَ المحارَهْ

جِئنَا.. لكيْ نكتُبَ حُريَّاتنا

من بعد أن ضاقتْ على أجسادنا العِبَارَهْ

لكنَّنا.. حين امْتَلَكْنَا صُحُفاً،

تحوَّلَتْ نُصُوصَــنَا

إلى بيانٍ صادرٍ عن غرفةِ التجارَهْ...

والحرية المتأصلة في النفوس أغلى من حياة الإنسان نفسه، لأنه إن لم نكن أحراراً من أمة حرة فحرية الأمم عارٌ علينا، كما يقول أنطون سعادة رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي وصاحب كتاب «نشوء الأمم» لذلك فإن نزار قباني الذي آمن بهذا المذهب، قد رأى أن يكتب وصيته لئلا ينساها الناس فيقول في قصيدة «الوصية»:

أَدخُلُ مثلَ الموت من نافذة الخليفَهْ

يَحسبُني مرتزقاً..

دبَّجْتُ في مديحه قصيدةً هَمْزِيَّهْ

يأمُرُ لي من بيتِ مالِ المؤمنينَ كلَّ ما أطلبُهُ..

عباءةً من قَصَبٍ

وساعةً من ذَهبٍ

ومن نساء قصره مَحظيَّهْ.

أَبْصُقُ فوق وجهه..

وفوق وجه الدولة العَليَّهْ

من أنتَ؟

يا سيَّافُ. إقطَعْ رأسَهُ..

وهاتِ لي الرأسَ على صينيَّهْ

يا مَلِكَ الزمانِ، إنْ قتلتَني

فمستحيلٌ تقتُلُ الحريَّهْ...

وثمة نصائح يسدي بها نزار قباني إلــى الكتَّاب الجدد أن يكونوا حسبَ رأيه كما يلــي فــي قصيدته «النصائح الذهبيَّــة.. فــي أدب الكتابــة النفْطيَّة» فيقول:

لوَ شاءَتِ الأقدارُ أن تكونَ كاتباً

يجلسُ تحتَ جُبَّةِ الصحَافة النفْطيَّهْ.

فهذه نَصَائحي إليكْ:

أُدْخُلْ إلى مَدْرَسَةٍ تُعلِّمُ الأُميَّهْ.

أُكْتُبْ بلا أصابعٍ.. وكُنْ بلا قَضيَّهْ.

إمْسَحْ حِذَاءَ الدولةِ العَلِيَّةْ.
إشْطُبْ من القاموسِ كِلْمَةَ الحُرِّيَّهْ.
....
.....

ولا شك أن الحكم الاستبدادي يطارد الأحرار فوق كل أرض وتحت كل سماء، ويعتبر هذا الحكم أن المعارض ضد الحكومة، وإذا ما ضحك أو ما أراد أن يضحك فعليه أن يطلب الترخيص من الحكومة وما يتطلبه من رسوم وطوابع، وربما يكون الكلام عن «الله» أسهل من الكلام عن الحكومة فيقول في قصيدته «الخطاب»:

قال عَنِّي المدّعي العامُ..
وقال الجُنْدُ حين اعتقلوني
إنّني ضِدُّ الحُكُومَهْ..
لم أكُنْ أعرفُ أن الضحكَ..
يحتاجُ لترخيصِ الحكومَهْ..
ورُسُومٍ.. وطوابِعْ..
لم أكُنْ أعرفْ شيئاً..
عن غسيلِ المُخِّ..
أو فَرْمِ الأصابعْ!!.
في بلادي،
ممكنٌ أن يكتُبَ الإنسانُ ضدَّ الله..
لا ضدَّ الحكومَهْ..
فاعذرُوني، أيُّها السادةُ،
إن كنتُ ضحكْتُ..
كان في وُدّيَ أن أبكي..
ولكنّي ضَحِكتُ..

أما اللغة المستحيلة التي لا يستطيع الكاتب أن يتكلمها هي لغة الوطن اللغة العربية، مع أنه «اسبرنتو» ببقية اللغات قاطبة، لأن العربية لغة السماء والأرض والرجل والمرأة وهذا مما يشكل تهديداً على أعداء الحرية للأمة العربية الواحدة، فيقول في قصيدته «اللغة المستحيلة»:

الكاتبُ في وطني
يتكلَّمُ كلَّ لُغاتِ العالَمِ،
إلاَّ العَرَبيَّهْ..
فلدينا لغةٌ مُرْعِبَةٌ
قد سدُّوا فيها كُلَّ ثُقُوبِ الحُرِّيَّهْ!!

والحرية التي يقاتل من أجلها الشاعر، تسكن وإياه في حزب المطر ليذهب كالسمك الوحشي في هذا المدى، ويبحث عن حرية الريح، فيقول في قصيدة «حزب المطر»:

أنا لا أسكنُ في أيِّ مَكانٍ
إنَّ عنواني هو الّلا منتظرْ..
مُبْحراً كالسمَكِ الوحشيِّ في هذا المدَى
في دمي نارٌ.. وفي عينيَّ شررْ
ذاهباً أبحثُ عن حُرّيّةِ الريحِ،
التي يُتْقِنُها كلُّ الغَجَرْ..

وإذا كثرت الموانع لدخول الحرية إلى وطننا العربي الكبير، فما ذلك إلا بسبب التناحر القبلي، والتنافر الطائفي، والتهافت الفكري الذي نمَّى حكم العشيرة، وعقلية العشيرة تتحكم وما

برحت الحرية إلى جانب الأبواب قريبة من أي شخص يريدها على الرغم من مضي خمسة قرون عندما رحل الخليفة الصغير عن إسبانية، يقول الشاعر في قصيدته «أحزانٌ في الأندلس»:

مَضَتْ قرونٌ خمسةٌ..
مُذْ رَحَلَ (الخليفةُ الصغيرُ) عن إسبانيهْ..
ولم تزلْ أحقادُنا الصغيرهْ
كما هيَهْ..
ولم تزلْ عقليّةُ العشيرهْ..
في دمنا كما هيَهْ...
ولم تزَلْ
حُريّةُ الرأي هُنا
دجاجةً مذبوحةً..
بسيف كُلِّ طاغيَهْ

ولا ترتعد فرائص المستبد إلا بالحرية، هذه الحرية التي يخافها الكبار قبل الصغار، والحكام قبل عامة الناس، لأن الحرية تؤخذ ولا تعطى تناضل من أجلها الشعوب، ولا توجد ولا حتى ببقالية واحدة، يقول نزار في قصيدة «وطن للإيجار»:

كلَّ نَهارٍ،
أكتبُ للحريَّةِ شعْراً
يمنعُهُ حتّى الأحرارْ...

وما من أحد يطلب أن يكون حراً إلا عليه أن يتزوج الحرية التي آمن بها ودعا إليها وضحى من أجلها، يقول نزار بعد أن ركب بسفينته سفينة النجاة «تزوجتك أيتها الحرية»:

كانَ هُنالكَ.. ألفُ امرأة في تاريخي.
إلاّ أنّي لم أتزوّجْ بين نساء العَالمِ
إلاّ الحُريَّهْ...

وفي آخر الكلام وضع الشاعر حريته نصب عينيه، فإذا ما سرقوا منه هذه الحرية فستسقط السماء على الأرض، ويقول نزار عن ذلك في قصيدة «إفادة في محكمة الشعر»:

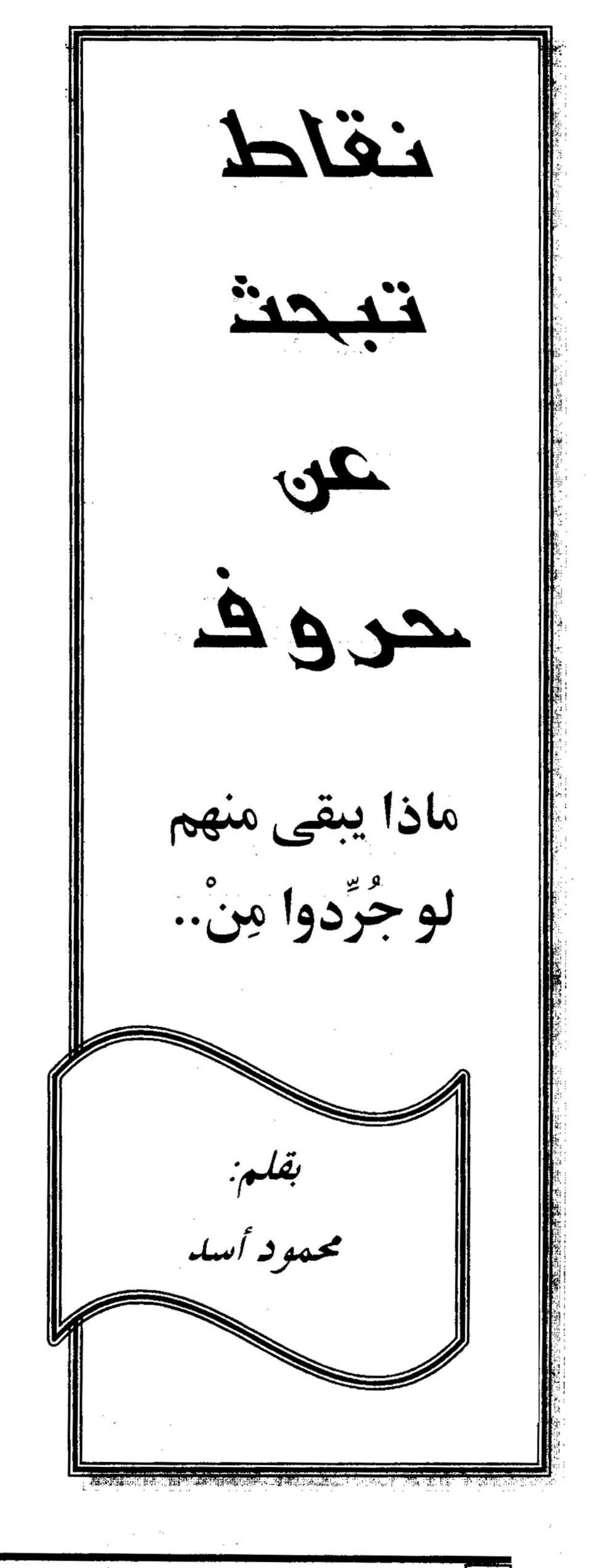
أنا حُريّتي.. فإنْ سَرَقُوها
تسقطِ الأرضُ كلُّها، والسماءُ

ما احترفتُ النفاقَ يوماً.. وشعْري
ما اشتراهُ الملوكُ والأُمَراءُ

كلُّ حرف كتبتُهُ.. كان سيفاً
عَرَبيّاً، يشعُّ منه الضياءُ

وقليلٌ من الكلام نَقيٌّ
وكثيرٌ من الكلام بَغاءُ...

هذا هو مفهوم الحرية عند شاعرنا الذي طرز كلامه بالمنمنمات اللفظية والتعابير الكلامية، وأتى بالشعر الموزون مرة، وغير الموزون مرة أخرى، ليخدم الفكرة التي يدعو إليها، والمبدأ الذي يؤمن به لنفسه أولاً وشعبه ثانياً، مؤمناً بأن كل إنسان حرٌ، وحرية الإنسان أغلى ما يملك، وأثمن شيء لحفظ وطنه وصون كرامته، وقد قال أحد الفلاسفة: «أنا حر، إذاً أنا موجود».



كنّا صغاراً، ونحن على مقاعد الدراسة، ننهل من ينابيع العلم الصافية.. عودُنا طريٌ، ضحكاتنا ربيعٌ يزيّنُ البيوتَ، وينعش النفوس.. أحلامنا إشعاعٌ نورانيٌّ شفاف.. أفراحُنا حقولٌ مفروشةٌ بالورود والرياحين.. ولمّا صَلُب عودُنا وانتفضت قاماتنا اكتسبنا الكثير من المقولات والمفاهيم، اكتبسنا زاداً يفوق سنّنا اكتسبناه من البيتِ والحيِّ والمدرسة والشارع.

التقطنا كالطيور كلَّ كلمة تلامسُ أسماعَنا، لتعبرَ عميقاً وتمضي بخيلاء كي تجدَ مستقرّاً لها في قلوبنا وعقولنا.. كنّا نُقبل على الحياة بنهم رغم صَخَبها وقَساوتها.. لا نديرُ لها ظهرنا، بل نتحصَّن بها.. ولكن عندما وقفنا أمام مهمّات الحياة ودخلْنا معترك الحياة، ومعترك الحياة يدعوك لتوظيف ما اكتسبته وادّخرته. بحثنا عن تلك المقولات التي مازالت تشعُّ في عيوننا. بحثنا عنها دون كلَل.. نقّبْنا عنها في مسامات الصحف والمنابر والأرصفة. استعَرْنا مواقفَ مَنْ درّسونا وأعطونا بسخاء وحبٍّ.. وجدنا مُتْعةً لا تجاريها متعة.. وشعرنا بنشوة الوقوف والوجود أمام كلّ المعوِّقات التي ترمى في طريقنا. ولكنَّ حبَّ الوطن والأمةِ كانا مبعث التحدِّي والاستمرار.

رددّنا الكثير مما حفظناه.. ومازلتُ أردِّدهُ وأتوقّفُ ملياً أمام مدلولاته الواسعة العميقة، التي مازالت تحفر مسارَها في طريق الحياة هذه الحياة التي تحتاج لفارسٍ نبيلٍ ورجلٍ واعٍ لا ينسى ما قالهُ وسمعَهُ.. بمعنًى آخَر ذاكرتُهُ ليست مثقوبة..

ربّما يسألني سائل: ما المقولة التي سوف تحدّثنا عنها بعد كلِّ هذا التمهيد؟

وإني لأردُّ عليه: تركت التخمينَ لكم.. وقد يقول آخر: في الاتحاد قوّةٌ وفي التفرقة ضعف..

أقول له: هذا أمرٌ يحتاج لتفسير.. وهو يشغل تفكيرُنا ونقاسي غربتَهُ عن حياتنا. وتدفعُ أمّتُنا ثمنه باهظاً. ولكن هناك من يهمسُ في أذني قائلاً: بالأخلاق تبنى الشعوب وترتقي الأمم على زعم قول الشاعر أحمد شوقي:

وإنَّما الأممُ الأخلاق ما بقيتْ
فإنْ همُ ذهبَت أخلاقهمْ ذهبوا

وإني أشدُّ على يديهِ وأضحك من نشوة الإعجاب وأقول له: مَنْ قال غيرَ ذلك فهو أحمق

وعاقٌ لقيمه ومثله.. وربّما تقفُ واحدةٌ كانت مستسلمةً للنوم في صفها، أيقظها صوت الضمير العالمي المخبأ في رغيف خبز يأكلهُ طفلٌ هاربٌ من زحمة الحياة في العراق والكونغو وأثيوبيا.. أيقظها صوت أسنانه وعويل معدته فنقول له:

اشرح هذا البيت يا فتي:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددْتَها
أعدْدتَ شعباً طيّبَ الأعراق

ولكنهُ تهرَّب من سؤالها بسؤالٍ آخر فقال لها:

من قائل هذا البيت الذي أتعبني حَمْلُهُ في ذهني:

فلا نَزلَتْ عليَّ ولا بأرضي
سحائبُ ليسَ تنتظمُ البلاد

تضحك لدرجة أنَّ عينيها دمعتا.. وهي تقول له: النتيجة إلى الآن تعادل.. فيجيبها: هذا باعتقادك.. بيننا جولةٌ وربّما جولات.. بعد هذا هناك مَنْ يقول وقد عَصَبَ رأسه براحَتَيْه:

الله يرحم أيام زمان.. الله عَوْنٌ على هذه الأيام. نعم ألف رحمة على أيام زمان.. تلك الأيّام التي غرستْ في نفوسنا أنقى العبارات وأسمى المواقف النبيلة فأسألُ ذاتي: أين مقولة: العملُ تكليفٌ وليسَ تشريفاً؟ وإني أبحث عن مدلولها كل يوم، وأفتّش عن أثر لها، فيلاحقني سؤالٌ آخرُ: ماذا يبقى من الناس الذين نتسابق في تقديم الابتسامة العريضة لهم لو جرَّدْناهم من مكاتبهم وامتيازاتهم؟ وماذا يبقى في ذاك الذي ارتدى وظيفته ليستر جَهْلَهُ وحماقته؟ وراحَ يُسيِّرُها لصالح نفسه ومَنْ يلوذون به ونسي جوهَرَ العمل. وماذا يبقى مَنْ أميٍّ أخذ من الطاولة مكاناً لتنوبَ عن جهله وتَجاوزاته لو عرَّيناه في وضح النهار؟ لقد ظنَّ نفسهُ عبقريَّ زمانه يفوق نجيب محفوظ. في الإبداع والنجومية ويضَع المعرّي في عروة معطفه ولا يشعر به أحد.. ولماذا لا يعيش هذا الإحساسَ المريضَ وهناك مَنْ ينفخ فيه ويُلمِّعُهُ؟ وهو لا يعرف سوى أسماء الصحف الدوريات التي يتبادل معها لعبةَ المصلحة والمنفعة المشتركة.

كلّما تذكّرْتُ هذه العبارة (العمل شرفٌ وتكليف) هذه العبارة التي يحلو للكثيرين وضعُها على جدران مكاتبهم شعَرت بالألم، لأنها أضحت شعاراً لأولي النفوس المريضة الّذي يضايقهم نجاحُ الآخرين فلا ينافسونهم ولا يباركون عملهم بل يحسدونهم، وهم على مكاتبهم الجرداء.. يكاد الكرسي أن يلفظهمْ لثقلِ طباعهم وغلاظة أدمغتهم وجفاء عبقريتهم..

كلما قرأتها ارتسم أمامي هيكلُ ذاك الأميِّ في العلاقات الاجتماعية والأدبية الذي لا يحسن ردَّ السلام والتحية. وما إن تدخل عليه حتى تراه يحمل سماعة الهاتف وراحَ في حديث بعيد عن الوظيفة، يسأل عن مادة له وعن مكافأة وعن... وقد جلسَ وراء طاولة تراكمت عليها الأوراق والكتب والمجلاّت.. تراه ولا تراه.. تراه في وظيفته وقد استغلَّ الطاولة ونصَّبَ من نفسه رجل بوليس، يفرض ما يريد ويرسِّخ ما يريد. ولا تراه إلاّ في مساحة ضيّقة مليئة بالعفن يحاول العومَ فيها والانطلاقَ منها وليته يقدر العومَ.

قال أحدُهم: ماذا يبقى من أمثال هذا لو جرّدتَهمْ من وظائفهم ورميّتهم في معترك الحياة والإبداع ليُثبتوا وجودَهم؟ وأنا أقول له: إننا سنحتاج لمقبرة كبيرة لا تكادُ تتّسع لشبهاتهم وسرقاتهم ولن تقدرَ على هضمهم في حفرها..

وماذا يبقى من الكتابات عنهم لو جرّدوا من صفات لا علاقة لها بالإبداع..؟ وهل سيبقى حماسُ السماسرة نحوهم كما كانوا وراء طاولاتهم؟ أم أنهم سينقلبون عليهم ويتركونهم للبحث عن وافد جديد.. كم منْ مُدَّعٍ للأدب تورَّم وانتفخ وما عادَ الكرسيّ والمكتبُ يسعُهُ، ولكنه لا يملك إلاّ الطاولة والوظيفة مُؤقّتاً. وكم من مُشْترٍ للأقلامِ الرخيصة وقد غاب عنه أن ما يُكْتَبُ يُمْحى ولا يبقى إلاّ الإبداع الحقيقيّ الصادق.

أرجوك يا صديقي ألا تسألني عن اسم واحد منهم فعندها سأدلك إلى برنامج (جائزة المليون) الذي سينصُبُ جسراً بين جسوره البرّاقة وجسركَ الذي يعبره كلّ المشاة إلى صحيفتك التي خلّفها والدك لك ولجماعتك.. وما تركتَ شيئاً لحميد أفعالكَ. والعَمَلُ الحسنُ الحميدُ ثروةٌ تفوق كلَّ مهارات الدنيا الزائفة.

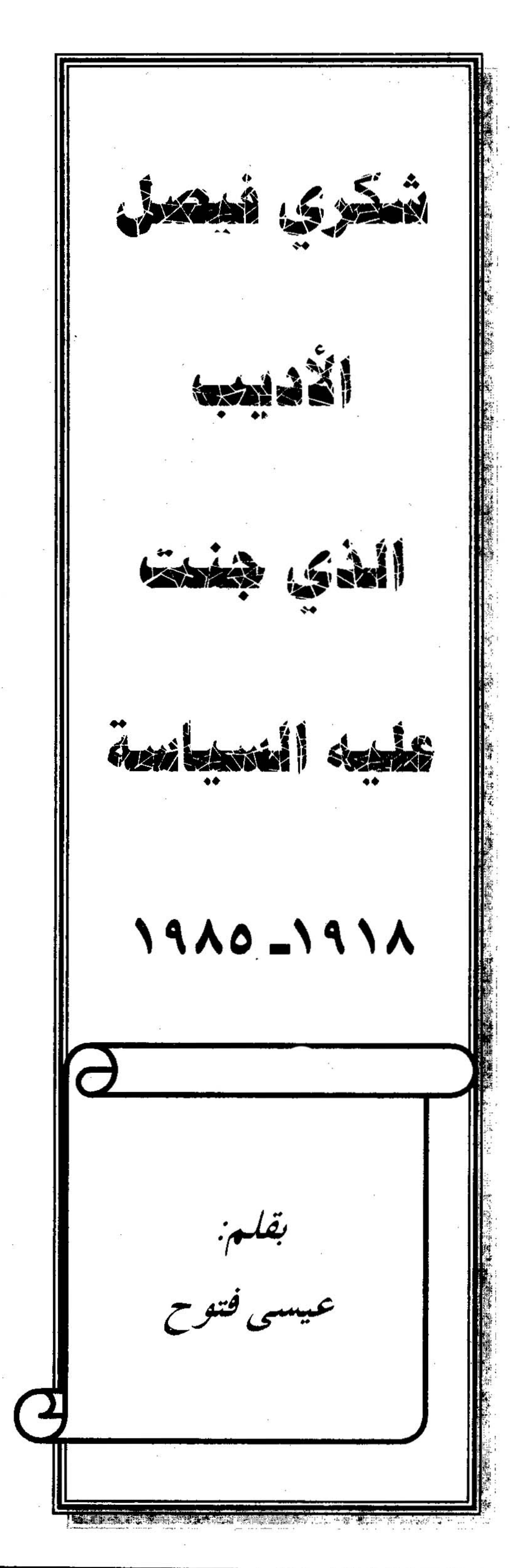



هي.. في السبعين..

شعر الدكتور: عمر النص

سلمتِ يا أميرتي! فهذه الآه التي أرسلتِها
لم تخلُ من عتابِ..
تعاتبنَ الدهرَ؟ أم تشكين؟ أم هذي فصول
العمر قد حالت إلى سرابِ..
أأنتِ في السبعينِ؟ من يزعمُ؟ من يجرؤ أن يكذب؟
من يجرؤ أن يخطئَ في الحسابِ؟
من قالَ إنّ العطر قد شاخ.. وأنَ الصيفَ قد شاحَ
وأنّ البدرَ قد سافر في الليل بلا إيابِ..
هل نسيَ التاريخ ماذا قالت العينان لمّا التقتا؟
ماذا حكى الحبّ؟ وماذا روتِ الريحُ عن البحرِ؟ وماذا
زعمتْ عرافةٌ لم تنسَ كم مزّقتُ في ليلي من حجابِ
هل نسيَ التاريخُ كم سكنتِ في محاجري؟ كم عشتِ
في قصيدة كتبتُها؟ كم غرتِ من قصيدة أحببتُها؟
فانهمرَ الطيبُ وجاءت غابةٌ خضراء تستروح عند بابي
سلمتِ يا أميرتي! فعمركِ العمرُ الذي لم يعرفِ الأسرَ
فمن يحبسُ بحراً في كتاب؟
عمركِ عمرُ الياسمين الغضّ.. عمر الشمس في عليائها..
عمرُ الأساطير التي أبحر فوق موجها شبابي..
أأنتِ في السبعين؟ كم أخطأتِ يا أميرتي؟ فأنتِ
في العشرين مازلتِ.. وهذي صورة أحملها تشهد
أنّ الزمن العابرَ قد أخطأ في الحسابِ..



الأستاذ الدكتور شكري عمر فيصل أديب مرهف الإحساس، وناقد رصين، ومجمعي بارز، وأستاذ جامعي متميز، وسياسي جنت عليه السياسة... ولد في حي العقيبة بدمشق القديمة لأب حمصي الأصل، وأم دمشقية هي أخت العالم الشيخ محمود ياسين الذي كان صاحب ومدير مدرسة (التهذيب الإسلامي) الابتدائية الخاصة، في حي (المسكية) قرب جامع الأموي، وفي هذه المدرسة تلقى شكري دراسته الأولى، وفي بيت خاله نشأ وترعرع، وعلى يديه تربى، وفي مجاله تفتح، وفي مكتبته كانت مطالعاته كما يقول.

انتقل بعد ذلك إلى مدرسة (نموذج البحصة) الرسمية التي أصبح اسمها فيما بعد (مدرسة معاوية) ثم إلى (مكتب عنبر) لمواصلة دراسته الإعدادية والثانوية، حيث تتلمذ على الأستاذين زين العابدين التونسي (١٨٨٨ - ١٩٧٧) وأبي الخير القواس في السنتين الأولى والثانية، وعلى الأساتذة محمد البزم (١٨٨٧ - ١٩٥٥) وسليم الجندي (١٨٨٠ - ١٩٥٥) وعبد القادر المبارك (١٨٨١ - ١٩٤٥) في السنوات التالية.

حين نال البكالوريا بقسميها العلمي والفلسفي عام ١٩٣٨ التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة، وفي عام ١٩٤٢ نال شهادة الليسانس في الآداب بدرجة الامتياز، وكان الأول بين خرجي تلك السنة، ولما عاد إلى دمشق درّس اللغة العربية في ثانوياتها، وواصل في الوقت نفسه دراسة الحقوق في الجامعة السورية، فنال الإجازة فيها عام ١٩٤٦.

أوفد عام ١٩٤٦ إلى جامعة القاهرة لتحضير الدكتوراه في الآداب، فعمل إلى جانب دراسته ملحقاً ثقافياً في الإدارة الثقافية بجامعة

الدول العربية التي كان يشرف عليها الأستاذ أحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤)، فكان شكري خير معين له في وضع الترتيبات التي آلت بالإدارة إلى ما دُعي فيما بعد بـ (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم).

في ١٩٤٨/٧/١ نال شهادة الماجستير في الآداب بدرجة جيد جداً، وكان موضوع أطروحته (مناهج الدراسة الأدبية - عرض ونقد واقتراح)، وفي عام ١٩٤٩ حصل على دبلوم معهد اللهجات العربية (قسم اللغات الشرقية)، وفي ١٩٥١/١٠/٢٥ نال شهادة الدكتوراه في الآداب بدرجة جيد جداً، وكان موضوع أطروحته (المجتمعات الإسلامية في القرن الأول للهجرة - نشأتها ومقوماتها وتطورها اللغوي والأدبي) ولما عاد إلى دمشق عين عضواً في لجنة التربية والتعليم المكلفة بتخطيط برامج التعليم ومراقبة الكتب المدرسية، وكان لا يترك لنفسه ساعة فراغ إلا أسهم بها في النشاط الثقافي للجمعيات والنوادي الدمشقية كجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الإخوان المسلمين، والنادي العربي وغيرها.

في عام ١٩٥٢ عين أستاذاً مساعداً للأدب العربي القديم في كلية الآداب بجامعة دمشق، وفي عام ١٩٥٦ صار أستاذاً بلا كرسي في الكلية، فأوفدته الجامعة إلى ألمانيا للزيارة والاطلاع، فتابع هناك دراسة اللغة الألمانية التي بدأها في جامعة القاهرة، واختار بعض المخطوطات الموجودة في جامعات توبنغن وماربورغ وبرلين لمكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق.

وفي عام ١٩٥٧ مثل سورية في مؤتمر الأدباء العرب الثاني الذي عقد في (بلودان) بسورية، وفي عام ١٩٥٨ مثلها في مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في الكويت، حيث ألقى بحثاً بعنوان (البطولة في الأدب العربي الحديث منذ سقوط بغداد حتى فجر النهضة الحديثة)، وفي عام ١٩٦٠ سمي عضواً في المؤتمر العاشر لهيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية في بيروت، حيث ألقى بحثاً بعنوان (ما أسهم به المؤلفون العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة الأدب العربي)، كما حضر ندوة التعريب التي أقيمت في ليبيا عام ١٩٧٤، حيث ألقى بحثاً بعنوان (عوائق في طريق التعريب) ومؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في ليبيا أيضاً عام ١٩٧٧، حيث ألقى بحثاً قيماً بعنوان (مشكلة اللغة العربية في الأدب المعاصر)، وندوة اتحاد المجامع العربية التي عقدت في عمّان عام ١٩٧٨، حيث ألقى بحثاً بعنوان (اللغة العربية خلال ربع قرن في ميدان التعلّم والتعليم)، وندوة التعريب التي عقدت في الخرطوم عام ١٩٧٩، حيث ألقى بحثاً بعنوان (موقع الندوة في حركة التعريب) وندوة اتحاد المجامع العربية التي أقيمت في الرباط عام ١٩٨٤ وكان بحثه فيها بعنوان (تعريب التعليم العالي والجامعي في ربع القرن الأخير)... والحقيقة أنه ما كان يتأخر عن الاشتراك في أي مؤتمر يدعى إليه، أو أية ندوة يستطيع أن يساهم فيها ببحث أو دارسة...

لقد كان إصرار الدكتور شكري فيصل على حضور هذه المؤتمرات والندوات، وتلبية رغبات الداعين إليها، موضع لوم وانتقاد بعض أصدقائه، فقد اتهمه الدكتور إبراهيم الكيلاني (١٩١٦ - ١٩٠٤) بالسعي الدؤوب وراء المال والتعويضات المادية، الأمر الذي أرهقه وأوهن قلبه المريض أصلاً، ولم تتجاوز المدة الفاصلة بين آخر بحث قدمه في ندوة المجامع العربية بالرباط ووفاته غير بضعة أشهر، فقد توفي يوم السبت الواقع في الثالث

من شهر آب ١٩٨٥ في مدينة (جنيف) بسويسرة إثر عملية جراحية في القلب، وفي العاشر منه نقل جثمانه إلى المدينة المنورة في المملكة العربية السعودية حيث دفن فيها، وفي ١٩٨٥/١٠/٣٠ أقيم له حفل تأبيني في اتحاد الكتاب العرب بدمشق الذي كان عضواً فيه، تكلم فيه نخبة من رجال الأدب والفكر، منهم الدكتور عدنان الخطيب (١٩١٤ - ١٩٩٥) الذي تحدث عن عمله في الصحافة السياسية وانتقاله فيما بعد إلى الصحافة الأدبية.

فاتني أن أشير إلى أن الدكتور شكري فيصل رشح نفسه عام ١٩٥٤ للانتخابات النيابية عن مدينة دمشق لكنه لم يوفق، فلما قامت الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ رشح نفسه لانتخابات (الاتحاد القومي) فنجح، ولم يلبث أن ظهر اسمه في عداد أعضاء (مجلس الأمة) عن سورية... وفي عام ١٩٦١ اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، واستقبل في جلسة علنية في الأول من شباط ١٩٦٢، واحتل المقعد الذي خلا بوفاة الأستاذ الرئيس خليل مردم بك (١٨٩٥ - ١٩٥٩)، وأسندت إليه عضوية لجنتي المجلة والمطبوعات والمخطوطات وإحياء التراث، وفي عام ١٩٧٢ انتخب أميناً عاماً للمجمع، ولم يمنعه هذا المنصب من متابعة التدريس الجامعي في كل من جامعة دمشق، والجامعة اللبنانية في بيروت، والجامعة الأردنية في عمّان، وتحقيق مخطوط (تاريخ دمشق) لابن عساكر، ووضع البرنامج لإتمام تحقيقه بمشاركة بعض الزملاء... وكان من قبلُ قد عُهد إليه بتحقيق قسم شعراء الشام من كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهاني بأجزائه الأربعة التي صدرت بين عامي ١٩٥٥ و١٩٦٨.

لقد استهوت السياسة الدكتور شكري منذ أن كان طالباً في المرحلة الثانوية، فكان من رواد الحركات الطلابية في مكتب عنبر منذ أن انتسب إليه عام ١٩٣١، ولذلك انتمى عام ١٩٣٣ إلى (عصبة العمل القومي)، ولما أصدرت هذه العصبة جريدة (العمل القومي) في السادس من حزيران ١٩٣٨ لتكون لسانها الناطق، وكلفت المجاهد عثمان قاسم برئاسة تحريرها، أخذ شكري يكتب زواياها، وينشر تعليقاته فيها، إما باسمه الصريح، أو باستخدام بعض الأسماء المستعارة، وكان أحياناً يستقل بتحريرها ويصححها ويدفعها إلى المطبعة بمفرده، إلى أن توقفت في أوائل الحرب العالمية الثانية، فترك الصحافة السياسية واتجه إلى الصحافة الأدبية، فكتب في مجلات الرسالة والثقافة والأديب والآداب.. والمعرفة والموقف الأدبي، ومجلة مجمع الغة التي كتب فيها ستة وعشرين مقالاً بين عامي ١٩٥٢ و١٩٨٠.. وقد اتسمت مقالاته بالجدية والعمق والإحاطة والدقة والفهم والوعي، فقد كان الدكتور شكري أديباً موهوباً وناقداً بليغاً، أوتي قلماً سيالاً، وأسلوباً مشرقاً وجذاباً تأثر فيه بأسلوب طه حسين، وكان يقول:

"أعتقد أن العناية بالأسلوب عناية لا تكلف فيها يجب أن تكون موضع اهتمامنا، فالأفكار الطيبة، والنتائج القيمة، والأبحاث التي استنفدت الجهد، يجب ألاّ تبرز للناس في ثوب مهلهل". ولا يشك الأستاذ عبد الغني العطري (١٩١٩ - ٢٠٠٣) في (أن شكري فيصل كان أديباً ذواقة وموهوباً، يتمتع بأسلوب قلّ نظيره بين الأدباء العرب قديماً وحديثاً، تأسرك كلماته الرقيقة، وتسحرك جمله وألفاظه... ولا غرابة فقد تتلمذ على عميد الأدب العربي طه حسين، فأعجب بأسلوبه وأحبه حتى العشق، فتشابه الأسلوبان، وامتزجا امتزاجاً عجيباً، حتى لم

يعد من السهل على الباحث أو الناقد أن يميز بين الأسلوبين... لقد غدا أسلوب شكري نسخة ثانية عن أسلوب أستاذه طه حسين، فقد ترسم خطاه في أسلوبه الساحر، حتى جرى مجرى الطبع فيه، وصار جزءاً من أدبه، وعلامة بارزة في كل ما كتب وأبدع...).

أستاذي شكري فيصل

عرفت الأستاذ الدكتور شكري فيصل عام ١٩٥٨ حين كنت في السنة الثانية بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق، يوم كان يلقي علينا محاضرات عن (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، من امرئ القيس إلى عمر بن أبي ربيعة) وفي السنة الثالثة انتقل بنا إلى دراسة الأدب العباسي حيث درسنا عليه ثلاثة من شعراء هذا العصر هم: بشار بن برد، وأبو العتاهية، وأبو نواس، فكان يختار لنا نصوصاً من دواوينهم فيحللها ويشرحها ويفندها ويبين خصائصها الفنية، وصورها، مستعيناً بذاكرته الخصبة، وحافظته الجيدة، وموهبته الخارقة... فقد كان بارعاً جداً في تحليل النصوص التي يقلّبها على شتى وجوهها، ويعتصر زبدة ما فيها من أفكار وخصائص وميزات، وكثيراً ما كنا نقضي ساعتين أو أكثر في دراسة النص الواحد الذي لا تتجاوز أبياته العشرة، فيأتي بأفكار ومعانٍ واستنتاجات كنا نستغرب كيف يفطن بها، ويصطادها خياله الخلاق المبدع...

لا أذكر أنه حمل في حقيبته يوماً درساً مكتوباً، أو في جيبه ورقة وضع عليها رؤوس أقلام بل كان يمتح كلامه من ذاكرته الحية، وقريحته الفياضة... كان يتحدث بيسر وطلاقة وكأنه يغرف من بحر زاخر، لا يتردد ولا يتلجلج، لا يريد أن يقاطعه أحد من طلابه حين يكون مستغرقاً في الكلام، لئلا يقطع عليه سلسلة أفكاره، أو يعكر انسجامه في تحليل النصوص، أو سبحاته التي يغيم في ضبابها، محللاً وشارحاً ومفسراً، وما زلت حتى اليوم أحتفظ بمعظم ما أملاه علينا من محاضرات غير مكتوبة سابقاً، وأتمنى لو تتولى طباعتها إحدى دور النشر في الوطن العربي، حفاظاً على آثاره التي لم تجمع، ولا يزال أكثرها مبعثراً في بطون الصحف والمجلات العربية.

ومهما نسيت فلن أنسى يوم زرته في منزله، واطلعت على محتويات مكتبته الضخمة التي كانت تغص بالآلاف المؤلفة من الكتب التراثية والمراجع الأساسية، ورأيت السلّم الذي كان يستخدمه للوصول إل الرفوف العالية المحاذية لسقف المنزل، ولست أدري ماذا حل بهذه المكتبة الغنية التي أفنى زهرة شبابه في تجميع محتوياتها، فقد أغلقت بعد اضطراره إلى مغادرة دمشق والإقامة في المملكة العربية السعودية.

* * *

بعد أن أنهيت دراسة السنة الثانية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب عام ١٩٥٨، سافرت لقضاء عطلة الصيف في بلدتي (مشتى الحلو) دفعني تأثري به، وإشفاقي عليه من مواصلة العناء والسفر والسهر أن أكتب إليه رسالة أدعوه وأرجوه فيها أن يرأف بنفسه ويرتاح قليلاً في ربوع المشتى الجميلة، فأجابني برسالة تحمل تاريخ الثلاثاء ٢٩ تموز ١٩٥٨ هذا نصها:

عزيزي عيسى:

شكرت لك رسالتك الأخيرة، وإن جاءت متأخرة فيما تظن... ذلك أن كل شيء في حياتنا ينسحب على الصيف، حتى ليوشك أن يأكل... إننا في نهاية شهر تموز، ومع ذلك فلا يزال عندنا بعض الاجتماعات في مجلس الكلية، وبعض الرسائل، وبعض الأعمال الأخرى.

إن توتر الجو الدولي أنساني أو ألهاني عن أمر السفر، إلى جانب مشاغل الكلية، وحين أفكر اليوم أتساءل: هل في وسعي أن أخطو في ذلك خطوة جريئة؟

أمامي بحث مستعجل... وأعمال اخرى تتصل ببعض المخطوطات، ولا أدري كيف أتجاوز ذلك. يبدو لي على كل حال أني سآخذ باقتراحك الأخير، أن أزور الضيعة وحدي... وقد أصطحب زوجتي دون الأولاد.

أما متى يكون ذلك... فلا أدري.. ولك أن تنتظر مني رسالة في هذا... قبل السفر.

وعلى كل حال فلن أكون من عدم القدرة بحيث لا أستطيع أن أؤمن لنفسي بيتوتة ليلة أو ليلتين وفي ترتب أن أكتب لك مرة أخرى، أكرر لك الشكر والتحية، وأحمد الله على عافيتك من الوعكة التي ألمت بك، والسلام عليك ورحمة الله.

شكري فيصل

وبعد أن تخرجت من كلية الآداب عام ١٩٦٠ وعملت في التدريس والكتابة والتأليف، أنجزت كتاباً مخطوطاً بعنوان (أديب اسحق باعث النهضة القومية)، فخطر لي أن أرسله إليه ليكتب مقدمته، فأجابني برسالة مؤرخة في ١٩٦٩/١٠/١٢ معتذراً بلباقته المعهودة عن كتابة المقدمة قائلاً:

عزيزي الأستاذ عيسى:

تمنيت مخلصاً أن أفرغ لبحثك القيم هذا مدة من الزمن، تساعدني على أن أتمثل كل ما فيه، ثم أن أكتب عنه... ولكني وجدتني في دوامة من المشاغل التافهة الصغيرة التي تمتص الوقت، ولا تغني عن الحق شيئاً. ولقد تخطيت كل صعوبة فقرأت في جلسة واحدة قدْراً صالحاً اجتذبني واستمالني، ولكن العوائق كانت فوق ما أقدر على مطاردته.

إني أقضي هذين الأسبوعين وسط صجيج السفر الذي أرجو أن تتيسر لي أسبابه قريباً، وبين ضجيج داخلي هو هذه المشاعر التي تتملك الإنسان وهو يهم أن يغادر وطنه، وأن يبتعد عن مغانيه.

لهذا أتمنى أن تتاح لي فرصة قراءة الكتاب مطبوعاً، وإن كنت أعتقد أني حينذاك سأخسر متعة السَبْق إلى ذلك.

أتمنى لك أطيب الحظوظ من التوفيق في عملك هذا وفي أعمالك الأخرى، ولنا في الصيف المقبل إن شاء الله فرص كثيرات.

شكري فيصل

* *

تعمدت نشر هاتين الرسالتين لأظهر من خلالهما مدى تقدير الأستاذ الدكتور شكري فيصل لطلابه، مع أنني كنت في عام ١٩٥٨ لا أزال في السنة الثانية من دراستي الجامعية، فهو لم يهمل رسالتي، بل أجاب عنها بكل مودة واحترام وتقدير، واعتذر بلطف ولباقة عن عدم تلبية دعوتي لقضاء بضعة ايام في ضيافتي.

أما الرسالة الثانية التي كتبها لي بعد إحدى عشرة سنة من كتابة الأولى، فقد كنت ترجماناً أميناً لما كان يعانيه من ضغوط العمل، وكثرة المشاغل والأعباء والأسفار، ولما كان يحمله في قلبه من قلق وهموم لفراق أسرته ووطنه، فقد كان طوال حياته في حل ومرتحل... كما كانت تعبيراً صادقاً عن اللباقة والدماثة والشفافية التي كان يتمتع بها، والتهذيب الرفيع المتأصل فيه، وهل أجمل وأرق من قوله:

"أتمنى أن تتاح لي فرصة قراءة الكتاب مطبوعاً، وإن كنت أعتقد أني حينذاك سأخسر متعة السبْق إلى ذلك"..؟

رحيل الأديبة الدمشقية الظريفة إلفة عمر باشا الإدلبي

بقلم:
فاضل السباعي

أستطيع القول أني لم أجد «جمهوراً» أكثر إصغاءً إلى المحاضر وأشدّ ابتهاجاً لما يسمع، من ذلك الجمهور الذي كنت واحداً فيه، نصغي بجوارحنا إلى المحاضرة، المحدّثة اللبقة، «إلفة عمر باشا الإدلبي».. كان ما ظهر منها يؤكّد أنها ظريفة الظريفات بدمشق، ومن يظنّ في قولي هذا مبالغةً، فليسأل واحداً ممّن حضروا تلك الأمسية في الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٢، الذين غصّت بهم قاعة «مكتبة الأسد الوطنيّة» حتى وقف كثيرٌ منهم في الصالة الخارجيّة يستمع.

التكافل الاجتماعي في «حارة السكة»

في محاضرتها تلك، توغّلت إلفة في مجتمعها الدمشقي، رجاله ونسائه، شوارعه وحاراته، وعلى وجه الخصوص الحارة التي رُبِّيتْ فيها، «حارة السكّة» بطريق «المهاجرين»، لتخرج لنا بأصداف لم تخلُ صدفةٌ منها من حبّة لؤلؤ، وكان لؤلؤاً طبيعيّاً بامتياز، يُثير البهجة في النفوس والمتعة في العقول، ولا أقول أكثر من ذلك حتى لا أتّهم بالغلوّ.

وإليكم صَدَفَةً بلؤلؤتها:

تداعى سقف إحدى الغرف في بيت أسرتها الدمشقي القديم، فجاء والدها ببنّاء من أهل الحارة اسمه «عارف كلاس» لإصلاح السقف. ثمّ إنّ البنّاء قدّم فاتورة بثمن ما اشترى من موادّ، فبدا أنها كانت تكفي لإصلاح سقفين اثنين: «لم هذا كلّه، يا عارف؟». قال البنّاء: «نسيتُ والله، يا أفندي، أن آخذ رأيك، ولكنني على يقين من أنك لا تعارض. سقف غرفة جارنا فلان، أوشك على الهبوط، وهو مريض كما تعلم وعاطل عن العمل، وقد دعاني لإصلاحه، فوجد الكلفة باهظة، فقال لي: دعه يهبط علينا ويخلّصنا من هذه الحياة المرّة! فقلت في نفسي: الكلفة منك، يا أفندي، والشغل عليّ!». وكان امتنان الوالد لا يعادله إلا فرحة البنّاء بموافقة الأفندي على إسداء هذه

الخدمة للجار الآيل سقف بيته للهبوط.

وكان ممّا شدّ الانتباه، في تلك المحاضرة، وبعث الانشراح، نزولُ المحاضرة - وهي من السيدات المُنَعَّمات - إلى الطبقة الشعبيّة في حارتها التي تجمع بين الغنيّ والفقير، وتفهُّمُها لطبيعة الناس على اختلاف مستوياتهم، ومعرفتُها لأسلوب التعايش وما يتبادلونه من التعاطف والتكافل والاحترام في حياتهم اليوميّة: إنه إذا اتّفق أن حدثت وفاةٌ في الحارة، وكان عرسٌ يُعَدّ له، فإنّ ليلة الزفاف تؤجّل، فليس يجوز أن يكون في الحارة بيتٌ فيه عزاء وفي بيت آخر فرح. وفي حالة الوفاة، فإنّ أقرب البيوت إلى بيت المتوفّى يُفتح لاستقبال المعزّين من الرجال، ويُترك بيت المتوفّى لاستقبال المعزّيات من النساء.

بائع الذرة على رصيف الحارة

وفي محاضرتها هذه - التي تحوّلت إلى فصل في كتاب - لم تَدَعْ إلفة الدكاكينَ وأصحابها ومنَ يلحق بهم من الباعة على الرصيف، يخرجون من دائرة اهتمامها أو يتحرّرون من ملاحظتها ومراقبتها وتعرّفها على خفايا تصرّفاتهم!

فإنّ «محمد الطرّاب»، الشابّ الذي يبيع الذُّرة المسلوقة في حلّة على رصيف الحارة، لم تفقده ساقُه المبتورة بحادث سيارة قدرتَه على المرح، بنداءاته على بضاعته، التي يُواري فيها غزلاً، أو تشبيباً أو «تلطيشاً»، لجميلات الحارة، وهنّ في حجابهنّ التقليدي ذاك يسترنَ الوجوه بمناديل أرقّ من النسيم: «ريتَه يسلم لي هـ الطول، يا درا!»، «شعرك شباشيل الدهب، يا درا!»، ولكنه أبداً لا «يُلطّش» نساء الحارة، فكلٌ منهنّ بمنزلة أخت له، «عرضها عرضه»[1].

واللحام في «حارة نوري باشا»

وأسمح لنفسي، وأنا من خارج حارة السكّة، أقيم في حارة تليها نزولاً في سفح جبل قاسيون تسمّى «نوري باشا» (باسم أحد الولاة العثمانيين الصالحين)، أنا أدخل «على الخطّ» أو السكّة، فأروي أني، بعد استمتاعي بتلك المحاضرة وما تضمّنتْه من حكايات، أتيح لي أن أعرف أنّ لحّام حارتنا «زهير البَبْ» (المُكْنى بـ «أبو رضوان»)، هو من سكانِ حارة السكّة، فخطر لي أن أجاذبه الحديث، فسألتُه عن رجل كان يوماً يبيع الذرة في حارته، اسمه «محمد الطرّاب»؟ فالتفت إليّ، وقد اتسّعت عيناه! فزدتُ بأن ذكرت أسماء غير ذلك الاسم: «سعدو قزّازيّة الحمصاني»، و«أبو حاتم اللحّام» والخضري «مَجْمجْها»، فإذا الرجل يتوقّف عن فرم اللحم بسيخ الكباب، ويسألني: «خيّو! [يقلّدني] من أين تعرف هؤلاء الناس من أبناء حارتي، وأنت جئت من حلب، من عشر سنين، عشرين، ثلاثين سنة؟!».

قلت ما زاده دهشةً: «قرأتُها في كتاب!».

- وهذه «الأسماء» تُدوَّن في الكتب أيضاً؟!

- وقد يُدَوَّن فيها حديثي هذا معك!

ولست أدري ما إذا كان أصحاب هذه الأسماء قد ارتفعوا في نظر لحّام حارتنا، أو أنّ ما يكتبه الكُتّاب قد انخفض!

إنّ قصص المروءات التي روتْها السيدة إلفة في محاضرتها تلك، وكذلك التي استلهمتْها في كثير من قصصها الشاميّة، مستمدّةٌ من دنيا المروءات التي ما تزال تسود علاقات الناس في دمشق العاصمة، وهي المروءات ذاتها السائدة في بلاد الشام مدنها وريفها، وفي المجتمع العربي كلّه. وقد تجاوزت أديبتنا الذكريات الشخصيّة،

---

[1] كتاب «عادات وتقاليد الحارات الدمشقية القديمة، محاضرات ومقالات» (دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩٦، والكتاب حمل عنوان المحاضرة)، ص: ٩ - ٣٤.

متقمّصةً شخصيّةَ الباحث الاجتماعي، فرجعت إلى كتب ألّفها معاصرون تحدّثوا فيها عن هذه الموضوعات، وإلى كتب غيرها تستعرض قصص المروءات عند أهل الفتوّة في تاريخ أمّتنا العربيّة[٢].

أناقة ودماثة

أحبّت إلفة عمر باشا الإدلبي الناس والوطن، وجعلت منهم ومنه أطروحتها التي ظلّت تشتغل عليها في كلّ ما كتبت من قصص وروايات، وأخصّ روايتها الذائعة الصيت «دمشق يا بسمة الحزن»[٣]؛ والوطن، الذي تعيش فيه، ألهمها قصصاً وطنيّة ناجحة، مع أنّ مقاربة هذا النوع من الأدب القصصي محفوفٌ بالمزالق الفنيّة والموضوعيّة، التي استطاعت أن تتفاداها في غير قليل من قصصها الوطني.

وكانت إلفة تمتلك، على عصاميّتها في تلقّي العلم، لغةً سلسةً نقيّةً من الشوائب، قد اكتسبتها من المطالعة ومن ممارسة الكتابة، كما كانت تحرص على أن تظهر كتبها خاليةً من الأخطاء لغويّةً كانت أو مطبعيّة، مثل حرصها على أناقة الكتاب، وقلّما كان ذلك متاحا.

التقيتُها مرة في معرض الكتاب بدمشق، توقّع في أحد الأجنحة كتاباً لها جديداً. ورأيتها، قبل أن تدفع الكتاب إلى طالبه، تقلّب صفحاته وتصحّح خطأً هنا وآخر هناك، وفي ذلك من المشقّة ما فيه. وشكت إليّ، بمرارة اجتهدت في إخفائها، أنّ مَن عَهِدت إليه بالإشراف على طباعة الكتاب قصّر في بذل الجهد الكافي. بعد سنوات التمست مني ـ بصفتي ناشراً ـ أن أتولّى بنفسي قراءة كتابها المتميّز «عادات وتقاليد الحارات الدمشقيّة القديمة». وقد سرّني أنها أكبّت على قراءة التجارب الطباعيّة الأولى قراءة متأنّية، مع سنّها التي تجاوزت الثمانين، واستطاعت أن تلتقط أخطاء[٤].

وفي دماثتها المعروفة، ما أذكر أني سمعتُها يوماً تعنف في قول أو تُندّد بأحد، حتى في حقّ المسيء إليها. مرةً، بعد أن ألقت محاضرتها «المانوليا بدمشق» في المركز الثقافي العربي بأبو رمّانة في إحدى سنوات الثمانينات، قرأنا مقالاً هجوميًّا على المحاضرة بقلم كاتبة شابّة، مشهّرةً في ذلك بالبرجوازيّة والبرجوازيّين، فهذا أهمّ ما

---

[٢] كتبٌ من تأليف: البُديري الحلاق، حلمي العلاف، كاظم الداغستاني، جمال الفرا، عادل أبو شنب، سهام ترجمان، نجاة قصاب حسن، ناديا خوست، هاني الخيّر، منير كيّال... ولم يفُتْها الرجوع إلى كتاب «الصعلكة والفتوّة في الإسلام» لأحمد أمين.

وأحسَب أنه لو كان بلغها حديثُ ابنُ بطوطة عن زيارته لبلاد الشام، لذكرت بافتخار حكاية ذلك الغلام الدمشقيّ، الذي صادفه ابن بطوطة في أثناء مروره ببعض أزقّة دمشق... يقول: رأيته «وقد سقطت من يده صَحْفَةٌ من الفخّار الصيني، وهم يسمّونها [في بلاد الشام] الصحن، فتكسّرت، واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفَها واحملها معَك لصاحب أوقاف الأواني! فجمعها، وذهب الرجل معه إليه، فأراه إيّاها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن»، «رحلة ابن بطّوطة» (القرن الثامن للهجرة، ١٤م)، تحقيق عبد الهادي التازي (مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة، الرباط ١٩٩٣)، ١: ٣٣١.

[٣] أعدّت مسلسلاً للتلفزيون السوري بعنوان «بسمة الحزن»، وبُثّت في العام ١٩٩٣.

ويقتضي التنويه بأنّ أعمالها بلغت عدداً بضعة عشر كتاباً تكرّر نشر بعضها، هذا إلى أنّ غير قليل من أعمالها تُرجم إلى سبع عشرة لغة شرقيّة وغربيّة، ونخصّ روايتها هذه التي نُقلت إلى الإنكليزية ونشرت في طبعتين (بإنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية).

[٤] أذكر أنها توقّفت، رحمها الله، عند كلمة «موادّ» في عبارة «اشترى البنّاء موادّ تكفي لإصلاح سقفين»، فأضافت إلى الكلمة ألفاً ونصبتين. ثمّ قرأت الكتاب بعد ظهوره، بمتعة عبّرت عنها بحديث هاتفيّ طافح بالامتنان، واستدركتْ، بلطفها المعهود، تسألني عن الألف والنصبتين أين راحت؟ وعادت تكرّر الشكر والامتنان، بعد أن عرفت أنّ الكلمة «ممنوعة من الصرف»، وأنّ الصواب ما أُثبِت في الكتاب.

خلصَت إليه من المحاضرة. والتقيت إلفة، وتحدّثنا في ذلك، فلم أسمع منها كلمة انتقاد واحدة لتلك الكاتبة الناشئة.

وكانت تروي الحكايا لجلسائها بأسلوب يجمع بين توخّي الدقّة في تبيان الحقيقة كما تعرفها وبين المزاح الجميل. حدّثتنا عن اسمها، الذي عرفناه في الخمسينات «إلفة عمر باشا»، قالت: إنه في عهد الوحدة بين سورية ومصر، وكان قد سبق إلغاءُ الألقاب من باشا وبيك، رأت نفسها مضطرّةً إلى أن تحذف كلمة «باشا»، ولكن لم يرق لها الاسم في وضعه الجديد: «إلفة عمر»! فاستعارت كنية زوجها فأصبح «إلفة الإدلبي».

ومن حكاياتها الطريفة أنها زارت يوماً وصديقتها رئيسة «الندوة الثقافية النسائية»، بيت أحد الأدباء، فرأت الرجل وحيداً في بيته متوحّداً، فزوجته مسافرة إلى أمريكا «عند الأولاد»، وقد وجدت البيت جميلاً وساكنه يتحرّك فيه هانئاً راغداً فرحاً مرحاً، فسألته عن المدة التي ستمكث فيها زوجته بعيداً؟ فأجاب: «ثلاثة أشهر»، قالت: «وكم مضى منها؟»، قال: «ثلاثون يوماً»، قالت: «أظنّ أنها لن تكمل المدة!».

ولعلّ من أشهر أقوالها «اللاذعة» التي تُنوقلت عنها، هذا التساؤل اللطيف: «أريد أن أعرف: لماذا تكون مقارّ الأندية الثقافيّة تحت الأرض، وأندية القمار فوقها؟!»[٥].

إلفة والفن التشكيلي

وإلفة، الأديبة المبدعة، الحريصةُ على سلامة اللغة وجمال الكتاب، محبّةٌ للفنّ التشكيلي، وهي من المعجبين بإبداع الفنان الراحل «لؤي كيالي»، الذي جلست ابنتها «ليلى» في أوائل الستينات أمامه فأنجز لها لوحةً (بورتريه) مازالت تتصدّر صالة الاستقبال في بيتها المتسنم مرتفعاً في «المهاجرين»، وتنال إعجاب الضيوف العارفين بأسرار الفن!

حدث أن سافرت إلفة إلى حلب في ربيع ١٩٧٦ لإحياء أمسية أدبيّة فيها، وهي عازمةٌ على أن تزور الفنان لؤي كيالي في مرسمه، وكان قد غادر العاصمة دمشق معتكفاً في مسقط رأسه حلب، يُعاني ألماً نفسياً يتخفّف منه بمزاولة فنّه الأثير. زارته، فوجدت عنده كثيراً من اللوحات التي يُعدّها لمعرضه القادم بدمشق، ولكنها ـ ويا للأسف! ـ كانت مباعةً كلّها وهي قيد الإنجاز، إلا واحدة، هي «عازف العود»، فبادرت إلى شرائها، وأخرى رأتها على المرسم لمّا يفرغ منها بعد، فحجزتها لنفسها[٦]!

وأما اللوحتان، اللتان لإلفة، فما تزالان معلقتين في صدر بيتها في سفح جبل قاسيون.

وعلى ذكر بيت إلفة في «المهاجرين»، فإنّ المدخل إليه يقع فيما يُسمّى «شارع خورشيد ـ أول» المرتفع، والبيت والمبنى كلّه، يطلان على دمشق إطلالةً هي ممّا تمتاز به البيوت هناك في الأعالي. وأذكر أنّا سهرنا، ليلةً، عندها، أنا وابنتي الفنانة التشكيليّة «خلود»: كان الوقت صيفاً، والجلسة تحلو في شرفة البيت ليلاً والأنسام العليلة تدغدغ الوجوه قادمةً من غرب، وإنّ لإلفة مجلسها الوثير المطلّ، فتنازلت لنا عنه كي نتمتع بالإطلالة. وفيما نحن كذلك، ارتفع صوت المؤذّن في الجامع، «جامع الخير» (الواقع على يسار النازل من أول

---

(٥) كانت، رحمها الله، عضواً بارزاً في «الندوة الثقافيّة النسائيّة» العريقة بدمشق، المتّخذة مقرّاً لها، ومنذ سنوات بعيدة، «قبواً» يُنزل إليه بدرج في «حيّ الروضة»، ظلّ مركزاً يلتقي فيه المحاضرون والمثقفون.

(٦) يَذكر تاريخُ الفنّ التشكيلي في سورية، أنه في معرض لؤي الذي أقيم بدمشق في حزيران/ يونيو ١٩٧٦، في «صالة الشعب» بنقابة الفنون الجميلة في شارع الفردوس، كانت اللوحات المعروضة كلّها مباعة ومحجوزة، يَنِمّ على ذلكَ «النقطة الحمراء» (بوان روج) المثبتة أدنى كلّ لوحة، وتلك سابقةٌ ما عرفنا أنها تكرّرت في معارض الفنّ التشكيلي في سورية.

الطريق العام أدناه)، وكانت قمّة المئذنة توازي أفقياً ارتفاعَ الشرفة التي نحن فيها... وذلك من جمالات دمشق التي تمتلك هذا الجبل المطلّ.

رامه وعالم الضفادع

إنّ أسرة إلفة، في جانبها «الإدلبي»، الذي أنجب ذرّيّةً تُعنى بالعلم، كان في هذه الأسرة، من جانبها الآخر «عمر باشا»، كاتبٌ أو كاتبة، هي الشابّة «رامه»، بنت هشام، بن عادل شقيق إلفة.

عرفت رامه طفلةً في حارتنا «نوري باشا»، وهي في عمر ابنتي خلود. درست رامه الأدب الفرنسي بالجامعة، وتلقّت من والدها هشام، الذي رحل باكراً جداً (١٩٧٥)، حبّ الأدب ورقّة الإحساس وامتداد الخيال. كان يقول لها طفلةً تسير إلى جواره على شاطئ «نهر تورا» المارّ بحارتنا، ونقيق الضفادع يرتفع أيام الصيف في هذا الفرع الصغير من نهر بردى: هل تعرفين يا رامه ما يعني هذا النقيق؟ إنّ الضفادع يتحدثون فيما بينهم، إنّ لهم عالمهم الخاصّ، لهم زوجات وأولاد وبيوت و... مشاكل!! وفيما بعد، عندما آن لرامه أن تتكوّن أديبةً تكتب للأطفال القصص الخياليّة، استطاعت أن تُبدع بإحدى قصصها عالماً للضفادع، جعلتهم يتحرّكون في هذا الموضع من النهر، في قصة سمّت بطلها «الضفدع نمنوم» (لأنه كان يمارس النميمة بين عشيرته من الضفادع)!

في البدء، أخذت رامه تكتب القصص والقصص القصيرة جداً للأطفال، معبّرةً عمّا يُراودها من المشاعر والخواطر والفكَر. ومع أنّ ابنها «جميل» (يوم كان طفلاً) لم يُبدِ إعجاباً بهذه القصص[7]، إلا أنها ثابرت، تكتب وتُخبّئ في الدرج، إلى أن سألت يوماً صديقتَها خلود عمّا تفعله أخيراً بهذه القصص؟ فأجابتها ابنتي: عليك بأبي!

لمّا قرأت، أشهد أني أعجبت

ثمّ كان أنّ رامه تقدّمت بمجموعة من قصصها هذه، وعنوانها «طبيبة الغابة»، إلى مسابقة في «الإمارات»، فنالت بها جائزة «الإصدار الأول»، في أول مسابقة من نوعها تقيمها «إمارة الشارقة» عام سُمّيتْ «عاصمة العرب الثقافيّة» ١٩٩٨[8]. وتوالت أعمالها كتابةً ونشراً، فهي قلمٌ مبدع آخر في دوحة «عمر باشا»[9].

العودة إلى سفح قاسيون

أحبّت «إلفة عمر باشا الإدلبي» دمشق، وظلّت تتغنّى بها طوال عمرها المديد.

والأمر المُفارق أنها، وهي التي اكتحلت عيناها بالنور في دمشق عام ١٩١٢، قُدّر لها أن تنطفئ شعلة النور فيهما وهي بعيدة عن دمشق، في مدينة تُسمّى «مدينة النور»، ولكنها ووريت الثرى في سفح جبل قاسيون الذي ولدت فيه. وكانت وفاتها في باريس مساء الثلاثاء العشرين من آذار/ مارس ٢٠٠٧. رحمها الله.

---

[7] فما معنى أن تكون «النملة مبروكة»، مثلاً، تمتلك عقلاً راجحاً يجعلها حكيمة الغابة! و... «زامر الحيّ لا يُطرب»!. وقد نشرت دار إشبيلية (١٩٩٩) كتابها هذا «حكايات النملة مبروكة»، في سلسلة «شهرزاد الـ ٢١»، حمل فيها الرقم (٣).

[8] نشرته دار إشبيلية (١٩٩٩) في السلسلة ذاتها، وحمل الرقم (٤). وينتظر النشرَ كتابُها «الضفدع نمنوم».

[9] وهي تحمل اسم «رامه عمر باشا الإدلبي»، ذلك أنّ زوجها يحمل، بالمصادفة، اسم هذه الأسرة أيضا.




شعلةُ العطر..!

شعر الدكتورة: طلعت الرفاعي

أيّها الجائر

إن أبصرتَ

في روضك فلّة

صَلِّ للمبدع

واطبعْ

في جبين الفلّ

قُبلهْ

فعبير الفلّ

لو تعلمُ

يشفي كلّ علّه

إنهُ العطرُ

إذا ما ذابَ

في الأعماق

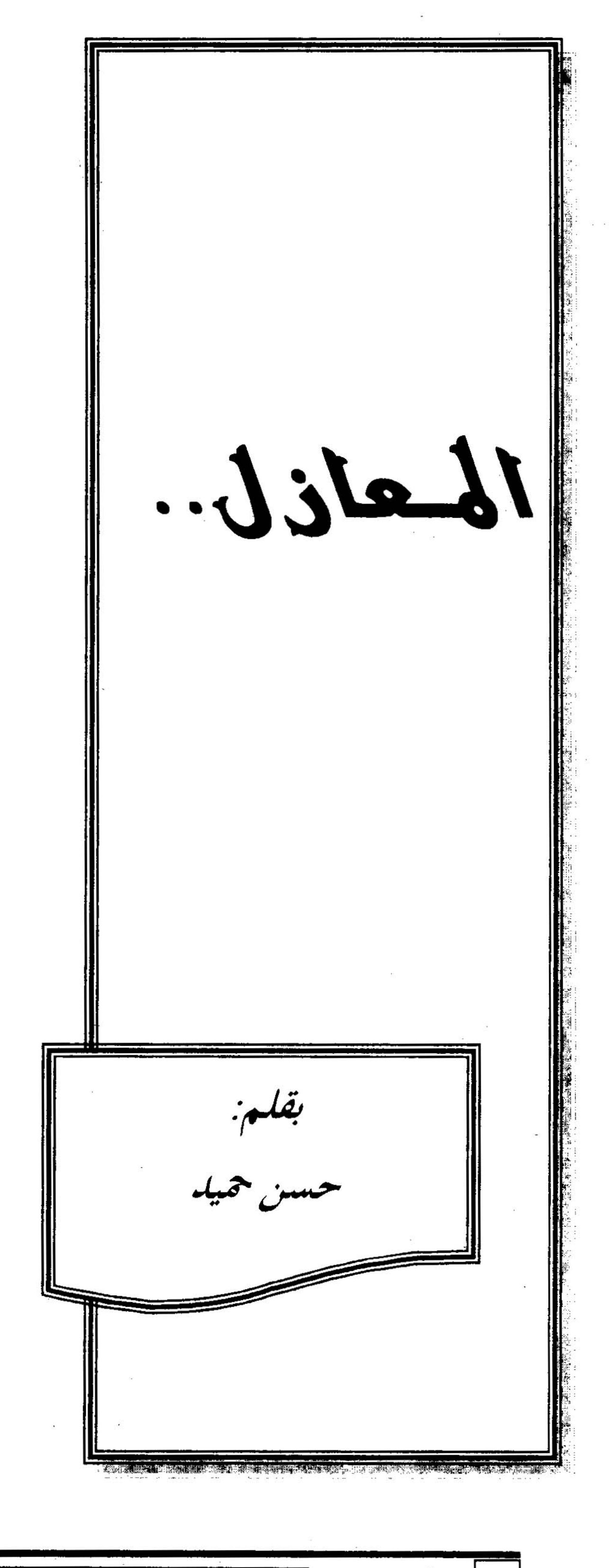
شُعلهْ

كُنْ رفيقاً

بمغاني العطر

فالمرأة طفلة..!



المعازل..

بقلم:
حسن حميد

أعرف وتعرفون.. أن أكثر ما كان يـؤرق آلهة الأولمب.. هو وحدتها!

فهي التي وعت أن العزلة ركون، وموات، وإماتة. وأن العزلة تأمل، وأفكار، ورؤى، وهدأة.. ولكن من دون مرايا.

آلهة الأولمب غادرت عزلتها بحثـاً عـن المرايا؛ ومراياها هي النـاس والطبيعـة، ديانـا اختبرت سرعتها وأشواقها في مطاردة الطرائـد. وصـيدون امتلـك البحـار والريـاح بالمغالبـة، وأفروديت هبطت مـن عليـين لتحـاذي سـطوح البحيرات والغدران لترى جمالها، وأبولو عـايش حركة الكواكب وعرفها باختبـار قـدراتها علـى ضبطها.

في العزلة فكر، وهدأة، وخيال، وتأمل.

ولكن.. في الناس المسرة.

أذكر هذا، وأنا أرى الأدبـاء والمثقفـين والمفكرين على صور عدة، لعلي أميّز من بينهـا ثلاث صور. في الصورة الأولى نجد أُولي المعرفة، والثقافة، والفكر، والإبداع وقد ارتضوا معـازلهم وعزلتهم بعيداً عن وسائل الإعـلام، بعيـداً عـن المخالطة والمناوشة، بعيداً عن مقارعة الأفكـار، والأحداث، وبعيـداً عـن الأخبـار واسـتطالاتها وعقابيلها، وبعيـداً عـن التفاعليـة الاجتماعيـة باعتبارهم حراساً للقيم، والوجدان، وحراساً للجمال (في كل صوره) مـن عبـث الفوضـى، والقـبح، والجهل، واللا مسؤولية، والهشاشة الرخوة.

هؤلاء يكتبون، ويفكرون، ويناقشون فـي عزلتهم المطلقة؛ قد يلتقون (وهذا غير مؤكد) فيما

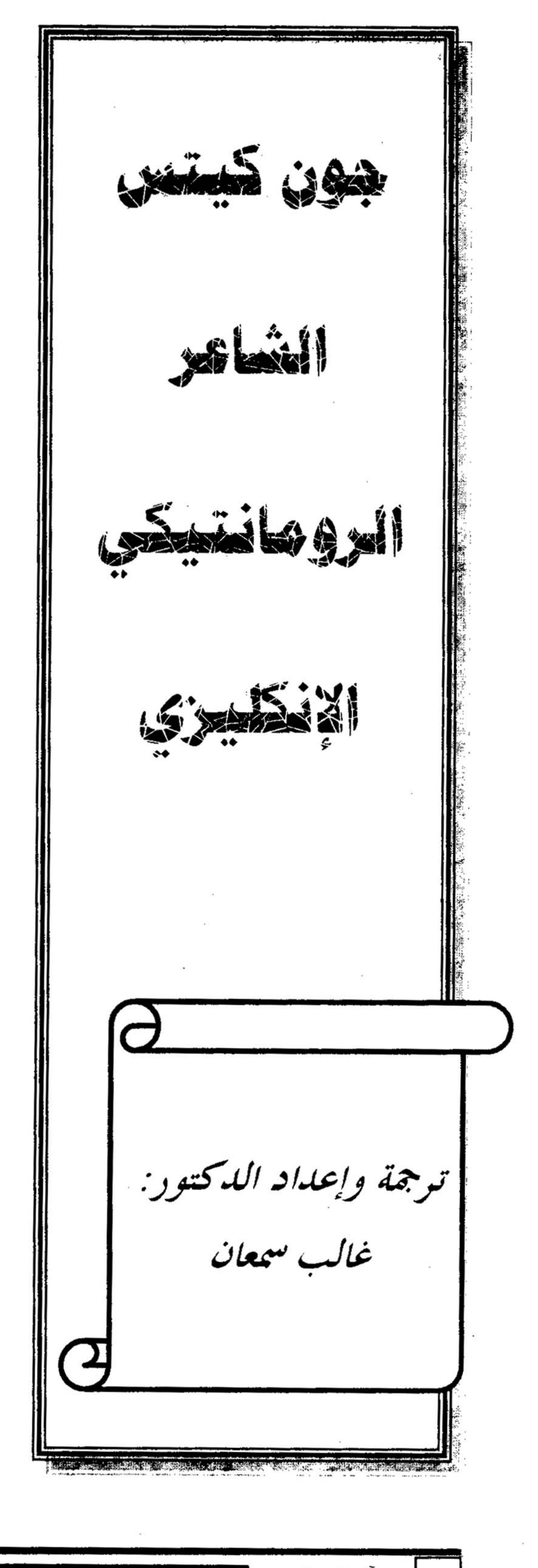
بينهم ولكن على استحياء، بحيث تظل العزلة هي الجوهري والمتن، وتظل التفاعلية الاجتماعية هي الثانوي والهامشي معاً. وهؤلاء على الرغم من عزلتهم هم حجر الزاوية للثقافة، والفكر، والأدب، وهم المرجعية، إن قالوا رأياً حركوا به الرواكد، وإن ألّفوا اجتمع الناس على ما ألّفوه، وإن أبدعوا كان إبداعهم علامة بادية، وإن تحركوا تتحرك العافية الأدبية والإبداعية معاً.

وفي الصورة الثانية: نجد جماعة (الجهل النشيط) الذين لا يتركون مكاناً إلاّ ويتواجدون فيه، تراهم في الفنادق، والمقاهي، ودور السينما، ودور المسرح، والأمسيات، والمحاضرات، ودور الموسيقا.. كائنات عجيبة همها الأول والأخير هو الظهور، وعدتها الأول (القض) على الناس واتهامهم، وتصنيفهم، والخوض ليس في كتاباتهم (تمزيقاً وتتفيهاً) وإنما الخوض في الأعراض، والدوس على الكرامات. ولـ (هؤلاء) تأثير، وهنا العجب العجاب، لأنهم يتصيدون الأدباء والكتّاب والمفكرين القادمين من البلاد العربية أو الأجنبية فيجالسونهم، وينشرون أهل الكتاب والإبداع نشراً (بالمنشار) وهم بذلك يقدمون أفكاراً جاهزة، منحولة عن أدباء وكتّاب لهم قيمتهم الإبداعية، غايتها تحطيبهم وتشويه كتابتهم، ومن أسف أن هؤلاء الأدباء العرب أو الأجانب الضيوف.. يغادرون دون تصويب للمعلومات المغلوطة التي عرفوها من هؤلاء الجهلة النشطاء.

وفي الصورة الثالثة، نجد أدباء وكتّاب أسميهم بأهل (الذمم المستورة) لهم معرفتهم، وإبداعهم، رضوا بـ (الوسطية) في الحضور، والمكانة. لا ينشطون على خفة، ولا يعتزلون على امتلاء، أهم ما يميزهم أنهم ليسوا أدعياء، إنهم أصحاب قولة (هذا ما لدينا) ولعل غالبيتهم تعي أن آلية الموهبة عندهم في أن هذه هي إمكانياتهم، وبذلك رضوا. طبعاً هناك صور أخرى لمتكسبي المقالات نشراً في (الصحف، والمجلات)، ومتكسبي الكتب، يطبعون ويعممون ويبيعون!

ما يعنيني هنا هو أمر جوهري خاص بهؤلاء الأدباء والكتّاب والمفكرين الكبار الذين يعيشون في معازلهم، أو عزلتهم.. لا يخالطون أحداً لا في نقاش، أو مشورة، أو رأي، أو كتاب.. فيشعر المرء بأن انسحابهم من تفاعلية الحياة الاجتماعية – الثقافية أذى، وضرر كبير.. حيث تظنّ جماعة (الجهل النشيط) أنهم هم سادة الحياة الثقافية باعتبارهم أكثر ظهوراً وموجودية، وهذا لا يقلقني إطلاقاً، فدائماً تحاول الأسماك الصغيرة أن تطفو فوق المياه (جهلاً) فتموت! ما يقلقني حقاً هو أن تصير عزلة هؤلاء الكتاب هي الجوهر، وحضورهم الثقافي والاجتماعي هو الثانوي.. تحت ذرائع لا يؤيدها (الحس السليم).. لهذا أنبّه لعزلة الكبار في الرواية، والشعر، والقصة، والفكر، والنقد، والثقافة. لكي نستعيدهم عبر مؤسساتنا، ووسائل إعلامنا، ومنابرنا.. فهم لا يحتاجون إلاّ لأمر واحد هو: الاعتبار.

فهل ننهض إلى هذه المهمة.. كي لا تصير الساح الثقافية ملعباً لراكبي أعواد القصب.. ظناً منهم أنها خيول أصيلة!



جون كيتس الشاعر الرومانتيكي الإنكليزي

ترجمة وإعداد الدكتور: غالب سمعان

شاعر إنكليزي عظيم، على الرغم من موته المبكر في الخامسة والعشرين، جراء إصابته بداء السل. يصف شعر جون كيتس John Keats (1795-1821) جمال العالم الطبيعي والفن كأداة ناقلة لخياله الشعري. براعته في ميدان النظم الشعري واللغة المجازية أعادت إنتاج الخبرة الحسية لقارئه. تطورت أشعار كيتس خلال مجرى حياته القصيرة، من ذلك الحب للطبيعة والفن باتجاه الحنو العميق على البشرية. لقد أعطى صوتا لروح الرومانتيكية في الأدب عندما كتب: "أنا متأكد من لا شيء ما خلا قداسة عواطف القلب البشري، وحقيقة التخيل". الشاعر ت. س. إليوت الذي عاش في القرن العشرين، حكم على رسائله بأنها الأكثر جدارة بالذكر، والأكثر أهمية، بين تلك التي كتبها أي شاعر إنكليزي، وذلك بسبب من صورها الحارة، التي انعكست على الشعر والشعراء والتخيل. ولد كيتس في إنكلترة، وتحديدا في شمال لندن، وكان الابن الأكبر لتوماس كيتس، الذي عمل في اصطبل لعلف الخيول وإيوائها مقابل أجر، وزوجته فرانسيس جينينغز كيتس. الزوجان أنجبا ثلاثة أبناء آخرين، توفي أحدهم في سن الطفولة، بالإضافة إلى ابنة. توفي توماس كيتس عام ١٨٠٤ كنتيجة لحادث ركوب، أما فرانسيس كيتس فتوفيت عام ١٨١٠ بالسل، الذي أتى أيضا على حياة أبنائها الثلاثة. انكب كيتس بين عامي ١٨٠٣-١٨١١ على متابعة الدروس في المدرسة، ونحو نهاية دراسته بدأ يقرأ بشكل واسع، ويأخذ على عاتقه أكثر من هذا، أي ترجمة نثرية لملحمة "الإنيادة" للشاعر الروماني فيرجيل، عن اللاتينية. وبعد أن غادر المدرسة في عمر السادسة عشرة، وضعه الوصي على شؤون العائلة، تحت رعاية جراح

لأربع سنوات، وخلال هذا الزمن نما اهتمامه بالشعر. كتب أولى قصائده عام ١٨١٤ واجتاز امتحاناته في الطب والصيدلة عام ١٨١٦. في أيار ١٨١٦ نشر كيتس قصيدته الأولى السونيتة (قصيدة تتألف من ١٤ بيتا) "أيتها العزلة" فكانت علامة على بداية إنتاجه الشعري. لدى قيامه بكتابة السونيتة واعتماده نظاما دقيقا للقافية، كان يبحث في الواقع عن مكان له في الميدان الذي تحول إلى تقليد أو عرف، والذي أسسه شعراء الملاحم البريطانيون والأوروبيون والكلاسيكيون العظام. المتكلم في هذه القصيدة يعبر أولا عن الأمل بأن يكون كمراقب للطبيعة، إذا كان له أن يكون وحيدا، وأن يتخيل من ثم، منتهى السعادة لدى كتابته الشعر في الطبيعة، أكثر من مجرد رصده للطبيعة على نحو بسيط. في سونيتة أخرى كان قد نشرها في السنة ذاتها "لدى إلقاء نظرة أولى على ترجمة تشابمان لهومر" يقارن كيتس قراءة ترجمات الشعر بخبرات قادرة على إثارة الخشية، كعالم الفلك الذي يكتشف كوكبا جديدا، أو المستكشفون الذين رأوا أول مرة المحيط الهادي. في "النوم والشعر Sleep and Poetry" وهي قصيدة أطول كتبها سنة ١٨١٦ يلفظ كيتس بوضوح هدف الشعر كما يراه: "أن يهدئ القلق ويلطف الهموم، ويرقي أفكار الإنسان". خلال عام من قصائده الأولى التي نشرها، تخلى عن الطب البشري، واتجه كلية لكتابة الشعر، ودخل التيار الرئيس للشعراء الإنكليز المعاصرين، ومع نهاية عام ١٨١٦ قابل الشاعر والصحفي لي هانت Leigh Hunt محرر مجلة أدبية، نشرت قصائده، وأيضا قابل الشاعر الرومانتيكي الريادي بيرسي بيش شيلي. كتبت (إنديميون Endymion) بين أبريل وتشرين الثاني ١٨١٧ ونشرت في السنة التالية، ومن المعتقد أنها الأغنى بين قصائد كيتس، على الرغم من أنها القصيدة التي تحتاج أكثر من غيرها للصقل. في هذه القصيدة يخدم بحث إنديميون البطل الفاني عن كاثيا إلهة القمر، كمجاز للتوق الخيالي لدى الشاعر، خلال بحثه عن "الموزية" إحدى إلهات الفنون والعلوم عند اليونان، أو عن الإلهام الإلهي. وفي مفتتح القصيدة نقرأ هذه الأبيات، مستهلا بها كتب قصيدته الأربعة، التي يبلغ مجموعها أربعة آلاف وخمسين بيتا:

كل جميل فرحة أبدية:
عذوبته تزداد، على طول المدى وأبدا
لن تصير إلى فناء، بل ستقيم لنا دوما
عريشة ظليلة هادئة نخلد إليها، وتتيح لنا نوما
عامرا بالأحلام العذاب، والصحة، وناعم الأنفاس
ولذا، نحن في كل صباح، ننسج
شريطا من الورود كي يربطنا بالأرض،
على الرغم من الأسى القانط، والافتقار القاسي
إلى الطبائع النبيلة، ومن الأيام الكالحة المتجهمة
ومن سائر الأساليب العليلة الحالكة السواد
التي علينا أن نتخذها في سعينا: أجل، بالرغم من هذا كله،
تنبري صورة جميلة فتزيح غطاء الموت
عن أرواحنا المكتئبة. كأن تكون تلك الصورة الشمس، أو القمر،
أو الأشجار العتيقة والشابة، التي تنبت العطايا الظليلة
للأغنام ترعاها، أو تكون في صورة أزهار برية

يحف بها عالمها النضير الذي تعيش فيه، أو
جداول صافية
تقيم لنفسها من فوقها غطاء باردا باعتدال
يحميها
من مواسم القيظ، أو الآجام الملتفة وسط
الغابات
وقد ازدهرت فيها ثروة من ورود المسك:
وهكذا أيضا تفعل بنا المقادير العظيمة
التي نتخيلها للراحلين العظماء ذوي البأس،
ممن سمعنا أو قرأنا أقاصيصهم الجميلة:
فكل ذلك ينبوع لا يغيض من الشراب الخالد،
ينصب في نفوسنا من علياء السماء.

وبعد (إنديميون) كافح كيتس بافتراضاته عن قدرة الشعر والفلسفة على التأثير في المعاناة، التي رآها في الحياة. أما (هيبريون Hyperion) فهي قصيدة ملحمية أو قصيدة طويلة، تحكي قصة بطل نبيل مكتوبة بلغة رفيعة، وهذا هو الشكل الأساسي الذي استخدمه الشعراء العظام قبل كيتس. موضوع (هيبريون) هو سقوط آلهة الإغريق البدائيين، الذين خلعهم الأولمبيون عن عرشهم، وهم ترتيب أحدث للآلهة، يتقدمهم أبوللو. استخدم كيتس هذه الأسطورة كي يمثل التاريخ كقصة للكيفية التي يعلم فيها الحزن والشقاء، الشفقة والحنو للإنسانية. تنتهي القصيدة بتحول أبوللو إلى إله للشعر، لكن كيتس ترك القصيدة غير مكتملة، وإن تخليه عن القصيدة يقترح أنه كان على استعداد للعودة إلى موضوع أكثر ذاتية، ألا وهو نمو عقل الشاعر ورغباته. ولاحقا وصف القصيدة بأنها تبدي الجمال الزائف الناشئ عن الفن مفضلا إياه على الصوت الحقيقي للشعور.

ومن "سقوط هيبريون: رؤيا":

للمتعصبين أحلامهم، ينسجون بها
فردوسا لشيعتهم، وكذلك يفعل البدائي،
إذ يطلق من سامق نومه
تخميناته عن السماوات، وإنها لخسارة أن
هؤلاء
لم يخطوا على صفحات الرق أو البردي
ظلال كلماتهم المنغومة،
فهم يعيشون، ويحلمون، ويموتون، عارين
من أكاليل الغار،
إن ربة الشعر وحدها هي القادرة على الإنباء
بأحلامها،
وبسحر الكلمات البديع وحده
تستطيع إنقاذ الخيال من الأغلال السوداء
والانجذاب الأخرس. من الأحياء يجرؤ أن
يقول:
"لست بشاعر- وليس لك أن تروي أحلامك"؟
لأن كل إنسان روحه ليست كتلة من الطين
له رؤاه، وقادر أن يتكلم إذا كان قد أحب
لغته الأم وارتوى بلبنها.

ثمة تطوران بارزان آخران حدثا في حياة كيتس، في الجزء الأخير من عام ١٨١٨ أولهما أن (إنديميون) نشرت في نيسان، واستقبلت بمراجعات سلبية في المجلات الأدبية الرائدة، وثانيهما أنه وقع في الحب بروحانية مع فاني براون Fanny Brawne ذات الثمانية عشر ربيعاً. اتقاد عواطفه نحوها ربما يكون قد استحضر في قصيدته (مساء القديسة أجنس The Eve of St. Agnes) التي كتبها عام ١٨١٩ ونشرها عام ١٨٢٠ في هذه القصيدة القصصية يتبع رجل شاب خطة محكمة، كي يتودد إلى فتاته ويربح قلبها. الانهمار الخلاق العظيم لكيتس جاء في نيسان

وايار عام ١٨١٩ عندما ألف مجموعة من خمس قصائد غنائية، الاحتياجات الكلية المتحررة من القيود للقصيدة الغنائية، النموذج الموزون النظامي، والتغير في المنظور، من مقطع شعري إلى مقطع شعري آخر، سمح له أن يتبع تداعي المعاني والخواطر والأفكار في عقله. النقاد الأدبيون يرفعون هذه الأعمال إلى مصاف الأشعار القصيرة الأعظم في اللغة الإنكليزية، وكل قصيدة غنائية تبدأ بالمتكلم وهو يركز على شيء ما: العندليب، الجرة، الإلهة سيكي، مزاج الكآبة، فصل الخريف، ليصل عند بلوغه التبصر الأعظم، إلى ذاك الذي يقدره ويجله. في قصيدته الغنائية "أغنية إلى العندليب" ترمز أغنية الطائر لجمال الطبيعة والفن، والواقع أن كيتس افتتن بالفارق بين الحياة والفن، فالكائنات البشرية تموت لكن الفن الذي يصنعونه، يبقى حيا. المتكلم في هذه القصيدة، يحاول باستمرار أن يستخدم التخيل، ويستعين به، كي يتلاشى في أغنية العندليب، لكن في كل مرة يفشل في أن ينسى نفسه، بشكل كامل، وفي المقطع الشعري السادس يتذكر فجأة ما يعنيه الموت، والتفكير به يثير فيه الرعب، ويرده إلى الأرض، وإلى إنسانيته وذاته. في القصيدة الغنائية "أغنية إلى آنية فخارية إغريقية" العريس والعروس المرسومان على الآنية الإغريقية لا يموتان، وحبهما لا يمكن أن يتلاشى أبدا، لكن من ناحية أخرى لا يستطيعان أن يتعانقا، أو يتبادلا القبل. في نهاية القصيدة يرى المتكلم أن عالم الفن بارد بالأحرى أكثر مما هو جذاب ومغر. القصيدتان الغنائيتان الأخيرتان "أغنية إلى الكآبة" و"إلى الخريف" تظهران تراجعا في أفكار كيتس عن الحياة والفن، هو يحتفي باتقاد العواطف الإنسانية الحارة، باعتبارها أكثر جمالا من الفن والطبيعة معا. لم يعش كيتس أبدا كي يكتب الشعر عن الكروب وكفاح القلب البشري، وهو ما كان يطمح إليه. بعض الدارسين يقترحون أن مراجعته لقصيدته (هيبريون) قرب نهاية حياته، تقيس ما الذي تعلمه عن الشعر. في النسخة المنقحة (سقوط هيبريون: رؤيا) يضع كيتس بجرأة القصيدة الأبكر داخل قصة بحثه الذاتي كشاعر. في الرؤيا ينبغي للمتكلم في القصيدة أن يمر عبر الموت ليدخل المعبد الذي يستقبل "فقط أولئك الذين لا يستطيعون أن ينسوا صنوف الشقاء في العالم". الذي يترأس في المزار هو مونيتا النبية، التي يجسد وجهها العديد من التناقضات التي انتابت خيال كيتس طويلا: الموت والخلود، الركود والتغير، خير الجنس البشري وشره. المعرفة التي تعطيه إياها مونيتا تحدد مهمته، ورسالته الجديدة، وطبيعة العبء الملقى على عاتقه. بعد أيلول ١٨١٩ أنتج كيتس شعرا قليلا، مشاكله المالية كانت تضغط باستمرار، إلى أن أصبحت حادة. أصبح وفاني براون مخطوبين، لكن مع إمكانية قليلة للزواج المأمول. في شباط ١٨٢٠ حدث له نزيف حاد وتقشع دما، فبدأت السنة التي دعاها وجوده بعد الموت. كان قد رتب لإعداد الديوان الثالث من الأشعار للطباعة: (لاميا، إيزابيلا، مساء القديسة أجنس وقصائد أخرى). في أيلول ١٨٢٠ أبحر إلى إيطاليا، برفقة صديق مقرب، والأشهر الأخيرة من حياته هناك، تميزت بما كان ينتابه من إمكانية الموت، وذكريات فاني براون.




يقولون..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

يقولون: إن الكتابة إثم عظيمٌ
فلا تكتبي
وإنّ الصلاةَ أمام الحروف حرامْ
فلا تقربي
وإنّ مِدادَ القصائد سُمٌّ
فإيّاك أن تشربي
وهأنذا
قد شربتُ كثيراً
فلم أتسمَّم بحبر الدواةِ على مكتبي

* * *

يقولون إنّ الكلام امتيازُ الرجال
فلا تنطقي
وإنّ الكتابة بحرٌ عميقُ المياهِ
فلا تغرقي
وهأنذا قد سبحتُ كثيراً
وقاومتُ كلَّ البحار.. ولم أغرق

* * *







يقولون: إني كسرْتُ بشعري جداَ الفضيلة
وإنَّ الرجال هم الشعراء
وأسأل نفسي:
لماذا يُقيمون.. هذا الجدار الخرافيّ
بين الحقول.. وبين الشجر
وبين الغيوم.. وبين المطر
وما بين أنثى الغزال.. وأنثى الذكر؟
ومن قال: للشعرِ جنسٌ
وللنثر جنسٌ
وللفكر جنسٌ؟
ومن قال إنّ الطبيعة
ترفضُ صوت الطيور الجميلة؟

*   *   *

يقولون: إنّي كسرتُ رخامة قبري
وهذا صحيح
وإنّي ذبحتُ خفافيش عصري
وهذا صحيح..
وإنّي اقتلعتُ جذور النفاق بشعري
وحطّمت عصر الصفيح
فإن جرّحوني
فأجمل ما في الوجود.. غزالٌ جريح




قصة

ذلك الآخر..

بقلم:
عبير كامل إسماعيل

عندما أخبروها أنه (الآخر) تداعَتْ جدرانُ روحها وتهدّمَت شرفاتُ قلبها المشرعة للآتي، تساءلت بألم:

- ترى من قرّر أنّه الآخر؟!

كيف يمكنُ أن يكونَ هذا الرجل (آخر)، وهو القادر ببوصلة عينيه أن يجعلَ قلبَها يتوه عن كلّ الاتجاهات إلاّه، بل إنّ حضورَهُ البهيّ كان كافياً ليجعل مذياع قلبها - المغلق بصرامة - يصدحُ بأنغام حبّها لينشرَها في أصقاع شرايينها، ويعلنها سيّدةً على جمهورية حبّه.

لماذا لم تحسّ باختلافه وهي تريحُ سنابلَ شعرِهَا على حقول صدره؟!

حاولَت أن تبحث عن تلك الحواجز التي حدّثوها عنها، ورسموها في مخيّلتها، كانت كل الفواصل والستر تتلاشى بمجرّد أن يهمس لها:

- أحبُّكِ أيّتها المجنونة!!

كان يقولها بلغتها التي اختار أن يكتب شعره بها - وهو القادم (ككلّ الأقلّيات في بلادها) من أصولٍ بعيدة لا تمتّ للعربية بصلة، وببحّة استقاها من نشوةِ صوفيّ سكر بحبّ الإله فتنهارُ كلّ الحواجز، فالحبّ عندما يأتي فجأةً يلغي كلّ شيء إلاّ حقيقة وجوده.

كانَت تحسُّ وهي في مدارات حبّه أنّه يشبه كثيراً أحلامَهَا، وأنّ الناسَ (آخرون) أمّا هو فالتوأمُ الذي تغذّت معه منذُ آلاف السنين بحبلٍ سريٍّ موصول برحم الطبيعة البكر.

قال لها ذات لهفة:

- مُذْ كنْت عشتارَ أحببْتُكِ.

أجابَتْ بخبث:

- لكنّكَ كنتَ هناك في جبالٍ بعيدةٍ حيث جذوركَ تنتهي.

ردَّ بفيض ضحكة غمرَتْ روحَهَا:

- إنني ذلك الولدُ العاقّ الذي كان يتركُ ديارَهُ ليقطعَ الفيافي على مهرٍ جامحٍ ليلاقي أميرةَ روحِه.

لم تكنْ قادرةً – رغم كلِّ المحاذير واللاّءات – إلاَّ أنْ ترفعَ رايةَ حبّه وتستسلمَ لبوحِ الكلمة.

كثيراً ما كان يغيبُ بأمرٍ من المجتمع ورجاءٍ من عينيها فيحضر – دون أن تدري – في شهيقها وزفيرها، تتنفّسُه فيحسّ بكثافة حضوره كلّ الذين يعتبرونه آخر.

كم حنّتْ لذلك الزّمن البدائيِّ الذي لم يحدّدْ يوماً أبعادَ القلوب، ولم يقطّع أطرافها ويهندسَها لتغدو ملائمةً للهويّات والأديان، فإذا بجدارِ الحضارةِ الإسمنتيِّ ينبثق أمامها مُفْرِغاً كلّ ما في جوفه من قيءِ التراكمات والأحقاد مظهراً وجهَهُ البائسَ القذر.

حاولتْ إلغاءَ وجودِه، وجرّبَتْ أن ترى الأشياء بعيداً عنه، فإذا هي وفي كلّ مرّةٍ تعودُ إلى عشّ قلبِه ووطنِ عينيه.

كان وجهُه أوّلَ صورةٍ يمكن أن تتمثّلَ لعينَيْها كلّما فاضَ بها الحزنُ وتقلّبتْ بها الحياة، لتدركَ كم ظلمَها عندما اتّهمَها بأنّ قلبَها مليءٌ بالخواء وبأنّه اقتفى أثرَهُ في دمها فلم يجدْ سراجَهُ ينير حناياها، وكم ظلمَتْ نفسها عندما أخفَتْ كنوزَ روحِها في كهوفها السرية حتى لا تبوح بما لا يرضي القوانينَ الأخلاقيّةَ الصارمةَ التي أخضعَتْ نفسها لها.

اجتاحَتْها الدهشةُ عندما اكتشفَتْ أنّها هي أيضاً (أُخرى) بالنسبة لكلّ من حولها، لصديقتها الأحبّ التي قالَتْ لها:

– نحن لسنا مثلَكُم، فقبلتانا مختلفتان.

فإذا بروحها تشتعلُ بسؤالٍ باك:

– لكن ألسنُنا تتّجهُ لإله واحد في دعائنا؟!

ولقريتها التي هربَتْ لحضنهَا الدافئ محاولةً إيجادَ جذرٍ لها بعد أن غادرَتْها وهي صغيرة، لتفاجأَ بالعجائز يتساءلْنَ كلّما مرّتْ بهنّ جالساتٍ أمام الأبواب الخشبيّة العتيقة:

– من الصّبيةُ الغريبة؟!

وللمدينة التي تمسّكَتْ بأهدابها وهي تبتسمُ على مضضٍ ونصلُ كلمات جارتها يجرّحُ نياطَ قلبِها عندما داعبَتْها مازحةً:

– لقد ريّفْتُمْ مدينتَنا أيّها القرويون!!

فتغصُّ بسؤالها:

– وهل يستأثرُ طفلٌ بحبّ أمّه؟! ألم نرِقْ جميعَنا دماءً من كلِّ الزمر لتمتزجَ بترابٍ واحد؟

أحسَّتْ بأنّها مجرّدُ كرةٍ تتقاذفُها القوميّاتُ والأديانُ والقريةُ والمدينة.

لفّها الضياعُ، سافرَتْ في بوادي نفسها باحثةً عنْ حقيقةِ وجودها وانتمائها، فلم تجدْ نجماً يضيءُ لها الدروب.

تذكّرَتْ ذلك المثلَ القائلَ: "أنا وأخي على ابن عمّي، وأنا وابن عمي على الغريب" واكتشفَتْ سرَّ كرهها له، فقد كانَتْ في تجوالِها الدائم الطّرفَ الثالثَ في المعادلة.

لم تكنْ في تلك اللجّة لتتذكّرَ سوى قلبه، فقوافلُ مشاعرِها لا تحتاجُ جوازَ سفرٍ للعبور إليه، وروحُها لا تقفُ عند تخومِ روحِه حتى تحصلَ على الجنسيّة والانتماء لحبّه.

تهربُ إليه طالبةً السّكينةَ لتجدَ من يفصلُ بينهما بأسلاكٍ شائكة من ألف نوعٍ من الغربة.

تخسرُ معاركَها في مجتمعٍ لا يخضعُهُ إلاَّ المتمرّدون، تواسي نفسَها وهي ترى هزائمَ أقسى تحلّ بالشعوب التي تنتمي إليها، فالهزيمةُ على ما يبدو لا تتجزّأ.

عندما قُيّض لها فيما بعد أن تغادرَ وطنَها لفترة مخلّفةً وراءَها كلَّ الأمراضِ المستعصية في جسد الشرق الحزين، وجدَتْ نفسها التي ضاعَتْ منها منذ زمن، فقد صارَتْ تنظرُ إلى كل شيءٍ على أرضِها من بعيد سهولاً وجبالاً، قرىً ومدناً، باديةً وساحلاً، فتحنُّ إليها دون أن تمزّق شوقها بالاختلافات والفروقات، أو تجرّحَهُ بمشرط الثّارات التي لا تموت، ولأنها فتحَتْ قلبها لكلّ من في بلادها، فلم تجدْ فرداً واحداً يمكنُ أن تنعتَهُ بأنّهُ الآخر.



الرصافة لؤلؤة بادية الشام

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

إن منظر أطلال الرصافة الضخمة الواسعه تثير شعور الدهشة والإعجاب في نفوس الناظر إليها، وينمي فيه الحس الحضاري والتأمل الفلسفي في تاريخ الكائنات ومصيرها، والتفكير في هذه المدينة الجميلة التي غدت كأطلال مهجورة بعدما كانت مدينة عامرة، ومركزاً حضارياً وسياسياً يتميز بنشاطاته الروحية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

موقع الرصافة:

تقع الرصافة في شمال بادية الشام، على مسافة ٣٠ كم جنوب الثورة والرقة، وتبعد عن قصر الحير الشرقي الذي يقع في جنوبها مسافة ٧٥ كم، ويوصل إليها من حلب باتجاه الرقة بمسافة تبلغ ١٤٠ كم، بطريق فرعي يتجه عن الرصافة.

تاريخ الرصافة:

أوضحت دراسات ما قبل التاريخ في معرض الفرات أهمية هذه المنطقة منذ ظهور الإنسان فيها وإسهامه في إعمارها، وقد شهدت هذه المنطقة مختلف الأحداث التاريخية التي تحدثت عنها الوثائق المكتشفة في مختلف عواصم ومدن الشرق القديم، وقد ورد اسمها (راصابا) في كتابة آشورية تعود إلى نهاية القرن ٩ ق. م كمركز آشوري.

عندما ازدهرت مدينة (دورا أوروبوس) في العصر الهلنستي والروماني، ظهرت أهمية حوض الفرات من جديد، كانت الرصافة بمثابة حلقة من سلسلة الأماكن الحصينة والقلاع المنيعة على الحدود العربية الشرقية في فترة نزاع الفرس مع اليونان ثم الرومان، ثم غدت الرصافة من المدن الهامة التابعة لمملكة تدمر التي امتدت من حدود ليبيا غرباً حتى الخليج شرقاً، وبعدما كانت هذه المدينة صغيرة في العصر الروماني وذات أهمية حربية، غدت الرصافة ذات أهمية كبيرة بعدما رفض الجندي المواطن (سرجيوس –

سركيس التخلي عن عقيدته المسيحية، فحكم عليه الرومان بالموت في الرصافة سنة ٣٠٥ م، وبعد عدة سنوات اجتمع خمسة عشر مطراناً في الرصافة وقرروا تشييد كنيسة ضخمة حفظت فيها رفات القديس (سرجيوس) والقديس (باخوس) والقديسة (جوليا) وصارت قبورهم مزاراً مقدساً، وقد اعتنق العرب الغساسنة المسيحية في القرن الرابع الميلادي وأسهموا في دعم مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح.

وقد اعتبر العرب الغساسنة أنفسهم خلفاء العرب الأنباط فأصبحوا أكبر قوة بين قبائل بادية الشام، حيث امتدت منازلهم من العقبة جنوباً حتى الرصافة شمالاً، مما جعل الروم البيزنطيين يعهدون إليهم مهمة الدفاع عن البادية فشيدوا المباني المختلفة في الرصافة، وجعلوا لها الأسوار، وزودوها بخزانات الماء، وقد شهدت الرصافة نهضة عمرانية في عهد الإمبراطور البيزنطي زينون، كما حافظت في عهد الإمبراطور (جوستنيان) وزوجته المنبجية الأصل (تيودورا) على أهميتها بعدما كانت بلدة دينية صغيرة.

أحداث مرت على الرصافة:

وكان الخطر الفارسي يهددهم دائماً مما جعلهم يرممون أسوارها باستمرار، ويكثرون من بناء خزانات الماء من مادة الآجر، وقد تمكن العرب الغساسنة مع حلفائهم البيزنطيين بقيادة (بليساريوس) من صد الهجوم الساساني الأول سنة ٥٢٧ - ٥٣٢م في وقت أخذت فيه الدولة الساسانية الطامعة تنازع البيزنطيين سيادة الشرق القديم، لكن الاقتتال الذي جرى بين العرب الغساسنة والعرب اللخميين أطمع كسرى أنوشروان سنة ٥٤٠م، فشن هجوماً كبيراً كان كارثة، فقد كان معه نحو ثلاثين ألف مقاتل، فاكتسح سورية الشمالية ماراً بمدينة منبج ووصل إلى حلب فأشعل النيران فيها، ثم انتقل إلى انطاكية فنكبها، ثم انتقل إلى أفاميا ومناطق حوض الفرات وهو يسبي الناس، وعندما وصل إلى الرصافة قابله مطرانها (قنديد) واتفق معه على دفع الجزية لقاء إطلاق الأسرى، لكن كسرى أعاد حصاره للرصافة سنة ٥٤٢م انتقاماً منها لعدم تسديد كامل الجزية، فخرج قنديد لمقابلته فجلده وأعاده إلى الرصافة مع جنوده فنهبوا ما طالته أيديهم من ممتلكات وكنوز الرصافة، ومع ذلك أمر بمحاصرتها مجدداً، لكن كسرى عندما علم بتجمع القوات العربية وعلم أن مؤونته كادت أن تنفذ، فك حصاره عن الرصافة واتجه نحو مدينة الرقة فاستولى عليها وأقام على الفرات جسر عبور، وفي عام ٥٤٤م قام ملك الحيرة المنذر الثالث بحملة ضد خصومه العرب الغساسنة، وتمكن من أسر أحد أبناء الملك الغساني وقدمه أضحية للربة (العزة) فغضب والده الحارث الثاني، فقاد حملة ثأر دامية انتصر فيها وقد جرت قرب قنسرين عام ٥٥٤م وقتل فيها خصمه المنذر الثالث.

وفي عهد الإمبراطور (جوستينوس الثاني) قرر خطة الخلاص من الغساسنة ونفوذهم من البلقاء والصفا وحران، لوضع حد لاستمرار تأييدهم لمذهب الطبيعة الواحدة المخالف لمذهبه، وكان ذلك أيام الملك الغساني المنذر بن الحارث، فأرسل رسالة إلى الحاكم البيزنطي في سورية يأمره بها بالتخلص من الملك الغساني بالطرق المعروفة، لكن الرسالة وصلت بالخطأ إلى المنذر فعرف المؤامرة المبيتة له، وبعد ذلك ندم الإمبراطور على فعلته وحاول استرضاء المنذر، ولكنه لم يفلح بذلك، وفي عهد الإمبراطور الجديد (طيبريوس الثاني) وجه دعوة إلى الملك الغساني لزيارة عاصمته البيزنطية مع ولديه، وتمت الزيارة ووضع على رأسه التاج الملكي.

وإذا كان ينسب إلى الحارث الثاني فضل ترميم أسوار الرصافة وتشييده للكاتدرائية وهذا يؤكد دور الغساسنة في الرصافة التي اتخذوها مقراً لهم، وهناك الآثار الممتدة مسافة ٣ كم خارج أسوار الرصافة وقد ظهرت فيها أطلال منشآت عربية غسانية، كل ذلك يذكر المشاهد بتاريخ الرصافة وإسهام العرب في إعمارها وازدهارها،

ومن الأطلال بقايا القصر الغساني ودار الضيافة خارج السور الشمالي، وما فعله يوحنا الرصافي حاكم إديسا من توسطه لإعادة كسرى الثاني إلى عرشه، ساهم في تحسين العلاقات بين الروم والفرس وجعل الرصافة تنعم بالهدوء، وأعاد كسرى الثاني ما نهبه كسرى الأول من الرصافة، وأهم شيء أعاده ذلك الصليب الكبير المرصع بالأحجار الكريمة، وكانت الإمبراطورة (تيودورا) أهدته إلى ضريح (سرجيوس) في الرصافة، وبعد عودة الصليب فرح أسقف إنطاكية فاتجه على رأس وفد لزيارة الكنيسة ووضع الصليب مكانه باسم الإمبراطور (موريس)، لكن البيزنطيين نظروا من جديد بحذر للعرب الغساسنة لأجل مذهبهم (الطبيعة الواحدة)، ففي سنة ٥٨٣م دعي المنذر بن الحارث الثاني لحضور حفلة تدشين كنيسة في (حوارين) فأسر وأرسل مع زوجته وثلاثة من أولاده إلى القسطنطينية، ثم نقلوا منها إلى صقلية فأمضوا فيها بقية حياتهم، وكذلك حصل مع النعمان بن المنذر، خدع كأبيه سنة ٥٨٤م وأسر، أدت هذه الأمور إلى ضعف حكم الغساسنة ومزق مجتمعهم، لكن بقيت الرصافة في ازدهارها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، حتى حينما احتلها كسرى الثاني ونهبها وخربها، أدى ظهور الخطر الساساني من جديد إلى تحسين العلاقة ما بين العرب الغساسنة والإمبراطور هرقل، فاعتمد عليهم في مقاتلة الساسانيين مدة ١٤ سنة

الرصافة في العهد الإسلامي:

عندما ظهر العرب المسلمون كقوة جديدة في شبه جزيرة العرب، كان العرب الغساسنة إلى جانب الروم البيزنطيين، وكان ملكهم جبلة بن الأيهم إلى جانب الروم في معركة اليرموك سنة ٦٣٦م قبل اعتناقه الإسلام، أما في عهد الأمويين أصبحت الرصافة مصيفاً هاماً للأمويين الذين اتخذوها مقراً لهم، ومارسوا فيها نشاطاتهم الثقافية والاجتماعية والرياضية والاقتصادية والسياسية، وانتقل هشام بن عبد الملك من قصر الحير الشرقي إلى الرصافة التي أسهم في إحياء عمرانها وازدهار نهضتها المعمارية، وشيد فيها قصرين اكتشف مؤخراً أحدهما، وعرفت الرصافة بعهده باسم (رصافة هشام) وكان يتجه إليها كبار الشعراء ليمدحوه.

وبعدما انتصر العباسيون على الأمويين قاموا بتخريب الرصافة سنة ٧٤٩م، خاصة مباني الأمويين فيها وقتلوا من كان فيها منهم حتى الأموات لم تسلم منهم.

ومع تأثر الرصافة بانقراض حكم الأمويين، إلا أن سكانها استمروا بنشاطاتهم المختلفة حتى بداية القرن العاشر الميلادي، وفي سنة ٩٠٨م عانت الرصافة كغيرها من غارات القرامطة التي أدت إلى حرقها حتى جامعها لم يسلم.

في سنة ١٠٤٨م زارها الطبيب ابن بطلان، وتحدث عن بقايا قصور الأمويين فيها، كما تفيدنا كتابه باسم (ميتروبوليت الرصافة سمعان) سنة ١٠٩٣م في القرن الحادي عشر الميلادي حول كيفية تعايش المذاهب المختلفة فيها، وفي سنة ١٢٢٢م زار الرحالة الجغرافي ياقوت الحموي الرصافة، وتحدث عنها واعتبر مبانيها كمعجزات فنية وروائع لفن العمارة في عصره، وفي سنة ١٢٥٩م انتشرت أنباء غزو التتار للعالم العربي والإسلامي، وذاعت أعمالهم الإجرامية من نهب وسلب وتعذيب وقتل وأسر ودمار للتراث العلمي، كل هذا أخاف أهل الرصافة فهجروا مدينتهم متجهين إلى السلمية وحماة وغيرهما ولم يعودوا إليها نهائياً، فبقيت الرصافة مهجورة تعبر وحشة مبانيها عن كآبتها ومأساتها، فبدت الرياح وكأنها تشفق عليها وتغطيها بالرمال لتحميها من اللصوص والغزاة.

الرحالة وبداية التنقيب في الرصافة:

أثناء مرور الرحالة والتجار الإنكليز في طريقهم من حلب إلى تدمر سنة ١٦٩١م فرحوا باكتشافهم لأطلال الرصافة، خاصة أنهم أعادوا ذكريات القديس (سرجيوبوليس)، كل هذا جعلهم

يتحدثون عن الرصافة في بلادهم، فرغب هواة الرحلات والمهتمين بالشرق بالرحلة إليها، وبمبادرة من علماء ألمان جرت أعمال تنقيب كانت جيدة، وإن كانت في بدايتها متواضعة، ومن المهم الإشارة إلى جهود علماء الآثار فيما بعد مثل (شنايدر).

بدأت أعمال التنقيب الأثري في الرصافة سنة ١٩٥٢م على نطاق واسع بإدارة الآثاري الألماني (ج - كولوتيز)، الذي قام بأعمال التنقيب مع أعضاء بعثته الألمانية خلال سبعة مواسم، من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٦٥، وكانت لجنة البحوث الألمانية ومعهد الآثار الألماني قد رصد الاعتمادات المالية لهذه التنقيبات الأثرية، وكان كل من (موسيل) و (شبانر) قد أعدا مخططاً للرصافة بينوا فيه أسوارها وأبوابها وأشهر مواقعها، وقامت (أرتودوهرن) بالكشف الجزئي عن قصر أموي شكله مربع وله أبراج مستديرة، وبابه الجنوبي يحيط به برجان، أما غرف القصر فكانت تطل على باحته الواسعة وبلغت أبعاده ٨٠×٧٤متراً.

كما اهتم (و. كارناب) بدراسة أسوار مدينة الرصافة، ومعرفة فن تنظيمها العمراني، وفن عمارة أبوابها الرئيسية والثانوية، وكل ما يتعلق بشوارعها ومبانيها، أما (كولوتيز) فقد اهتم بدراسة فن العمارة المسيحية في الرصافة، وبعد وفاته سنة ١٩٦٨ استأنف معهد الآثار الألماني للبحوث الأثرية سنة ١٩٧٦ بإدارة (تيلواولبيرات) كما قدمت مديرية الآثار والمتاحف له كل المساعدات والتسهيلات الممكنة.

أسوار الرصافة وأبراجها وأبوابها:

الأسوار المحيطة بمدينة الرصافة منيعة جميلة تثير شعور الإعجاب وتنمي الحس الحضاري، فقد كان لهذه المدينة سوران أحدهما خارجي والآخر داخلي كما يحيط به خندق، وجدران السور مبنية من الحجارة الجصية، وتدعمها الأبراج البارزة التي تدعم زوايا سور الرصافة، ويبلغ سمك سورها ثلاثة أمتار، ويشكل السور مستطيلاً غير منتظم بأبعاده (٥٥٧ - ٥٦٣ × ٤٣٢ متراً) ويتألف من طابقين، كذلك الأقواس الممتدة على طول السور.

وفي منتصف جدران السور أربعة رئيسة ومثلها ثانوية، ويعتبر الباب الشمالي أحسنها حفظاً وأكثرها جمالاً، يجذب الأنظار بجمالية زخارفه التزينيية الجميلة، ويثير الإعجاب بضخامته وجمال عمارته، يحيط به برجان بارزان، ومن هذا الباب ينطلق الشارع المستقيم الذي كانت تحيط به الأعمدة.

الكنيسة الكبرى:

إذا تابعنا جولتنا الأثرية باتجاه الجنوب، نصل إلى مبنى الكنيسة الكبرى (كنيسة الصليب)، ولعلها هي التي تضم رفات القديس (سرجيوس) وصديقه (باخوس) ويشاهد فيها قسم من الحنية الوسطى الكبيرة ذات القوس المزخرف، وحاجز الأيقونات في جهة الجنوب، كذلك الأعمدة التي كانت تفصل أروقة الكنيسة عن بعضها.

وفي جنوب كنيسة القديسين مبنى يعود إلى العصور الوسطى، يتألف من طابقين وله باحة وسطى حولها غرف مستطيلة مسقوفة، في إحداها كتابة عربية وفي بعضها صلبان محفورة في الجدار، أما في جهة الجنوب خزان للمياه، رمم ودعم العرب مباني الخزانات المحفورة في الأرض والمسقوفة، وأكبر هذه الخزانات يتسع لكمية من المياه تقدر بنحو ١٦٠٠٠ متراً مكعباً.

والمتجول أمام الأسوار يشاهد في أبراجها فتحات دفاعية خاصة بالمقاتلين الرماة.

كاتدرائية سرجيوس:

تعد من أهم مباني الرصافة.

مبنى البازيليك:

أو الكاتدرائية الكبرى المعروفة باسم كاتدرائية سرجيوس، وتعتبر أكثر مباني الكنائس اتساعاً وجمالاً، وتقع في جنوب شرق مدينة الرصافة، ولها عدة مباني ملحقة بها، وقد جرت عدة تجديدات لها، لما أصابها من نكبات وويلات

الحروب حيث تضررت كثيراً، وكذلك الزلازل مما جعل محبيها يضيفون أعمدة استنادية وجدران داعمة للجدران الخارجية لها، وتتألف من صحن رئيسي في الوسط، ورواقين جانبيين تفصلهما عن بعضهما أقواس كبيرة نصف مستديرة، وضخامة هذه الأقواس تطلب تجزئة ثقلها فيما بعد، بجعل أقواس مزدوجة صغيرة تستند على أعمدة وردية تعلوها تيجان كورنشية ذات نطاقات وعليها كتابات باسم سرجيوس، وفيها عناصر زخرفية تمثل أغصاناً تطوف حول الحنية، كما يبدو مكان المذبح قديماً، وفي جانبي الحنية الكبيرة غرفتان مربعتان، وفي وسط الكنيسة مصطبة نصف مستديرة كانت خاصة برجال الدين، وكذلك يوجد مقاعد حجرية ذات مساند مزخرفة بين المقاعد كانت توضع عليها الكتب المقدسة، وقد نالت هذه الكنيسة إعجاب كل من زارها من كل البلاد.

وفي القسم الشمالي من مبنى الكاتدرائية مبنى جامع الرصافة.

إن أهمية تاريخ الرصافة ومبانيها يجذب المنقبين ويشجعهم على العمل الأثري في هذا الموقع الهام، وقد أظهرت أعمال التنقيب لوحات فسيفساء ورسوماً جدارية هامة، ورغم أن الرصافة نهبت فإن مكتشفات الآثار المنقولة من أوان زجاجية وكسرات فخارية وخزفية وأجزاء من لوحات رخامية عليها بقايا كتابات سريانية ويونانية، يوضح مدى أهميتها، ولابد من ذكر ما اكتشفته البعثة الألمانية من مباخر وأكواب كنيسة فضية وذهبية ذات أشكال رشيقة وعليها كتابات سريانية، كل هذا يبشر بوجود آثار مهمة في مدينة الرصافة، كما يوجد في بعض متاحف العالم نقود أثرية عليها اسم الرصافة.

الرصافة في الشعر العربي:

كانت مملكة الغساسنة تجذب كبار الشعراء إلى بلاطهم، فالنابغة الذبياني زارها ومدح الغساسنة بشعره العذب، ومما قاله في ذلك:

حبوت بها غسان إذ كنت لاحقاً
بقومي، وإذ أعيت علي مذاهبي

وقال في شجاعة الغساسنة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

كذلك تردد عليهم حسان بن ثابت، فمدحهم وقد أمضى أسعد أيامه عندهم، وعندما أقام هشام بن عبد الملك في الرصافة قصده كبار الشعراء مثل جرير والفرزدق، ومما قاله الفرزدق:

فتنهض نهضة لبنيك فيها
غنى لهم من الملك الشآمي

وقال:

أغيثي من وراك من ربيع
أمامك مرسلٍ بيدي هشام

وقال في الرصافة:

متى تردي الرصافة تستريحي
من التهجير والدير الدوامي

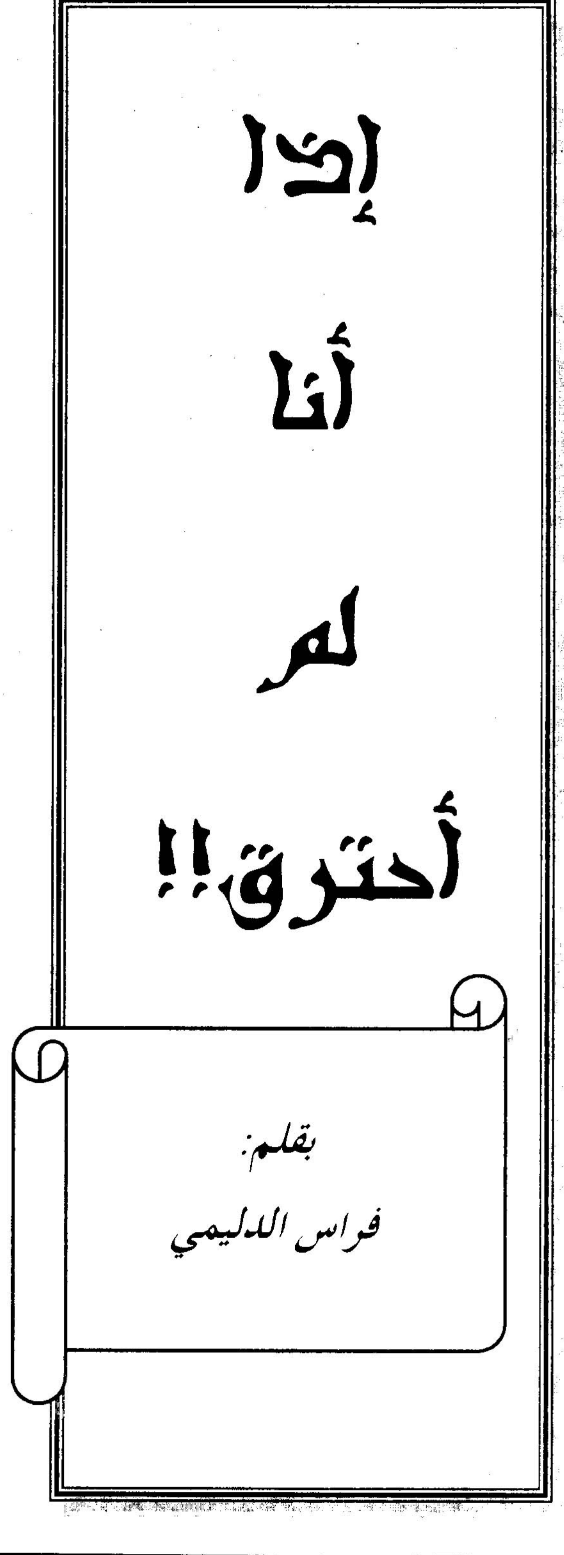
أما جرير فقال في الرصافة وهشام:

نظرت من الرصافة ابن حجر
ورمل بين أهلهما وبيد

وقد هجى جرير الفرزدق فقال:

حتى تأت الرصافة تخزَ فيها
كخزيك في المواسم كل عام

كل ما ذكرناه يؤكد أهمية تاريخ الرصافة، وإذا كانت الأحداث القاسية هددتها وجعلتها مقفرة من الحياة الإنسانية، فإن مبانيها القائمة وأطلالها تبدو وكأنها تتحدث بصوت الصمت ولغة العمارة وبلاغة الحضارة، كل ذلك يتحدث عن ذلك الماضي المجيد وتلك العصور التي توحي للإنسان بأنبل الأفكار، وتنمي فيه روح الشجاعة وصمود الأحرار.



إذا أنا لم أحترق!!

بقلم:
فراس الدليمي

في السنوات الأخيرة تسنى لي حضور لقاءات عديدة مع الشعراء وتحدثنا عن الشعر، والاشتراك في عدة ندوات، وفي الغرب اتهموا الشعر العربي بالإفراط في الالتزام، أحياناً عن قصد وأحياناً عن غير قصد..

واتهمونا بأننا مرتبطون كثيراً بحاضرنا وبالسياسة كما اتهمونا بأننا نقلل جداً من (التفكير بالأبدية) وقابلونا بالشعر (النقي والسامي) لبعض الشعراء العرب.

الجميع يعرف كم هو مرغوب الشعر. وتترجم اليوم قصائد الشعراء العرب إلى لغات مختلفة في العالم. وأصدقاء الشعر العربي يزدادون عاماً بعد عام. وطالما تثار المناقشات من جديد وطالما يدوي الاتهام ضد الشعر العربي حتى الآن فإنني أكتب حول هذا الموضوع بالضبط.

لكل واحد حرية الاختيار.. الاختيار يبدأ منذ الطفولة ويستمر حتى الثواني الأخيرة من حياة الإنسان.

هل يسير أم يتوقف؟ هل يصمت أم يجيب؟ هل يحتمل أم لا يحتمل؟ هل يساعد أم لا يساعد؟ كيف يعيش؟ كيف يعمل؟ أيكون أم لا يكون؟

الأجوبة لا تتخذ عادة معنى واحداً. وحتى اختيار الشيء غالباً لا يستوجب (بين بين). ومع كل هذا يختار الإنسان الحل الصحيح ويساعده على ذلك تجربة الأجيال العابرة ونصائح الأصدقاء وتجربته الخاصة ومجموعة القوانين.. أشياء عديدة تساعده. مع هذا يبدو العالم أحياناً غريباً بالنسبة للإنسان ومن الصعب فهم الأحداث والتخلف عن العصر لا يجوز.

وبدا كأن الإنسان لا يستطيع العيش في وتيرة مسعورة كهذه! وبدا كأن الحياة يجب أن تجتاح الإنسان وتبتلعه.

هناك من لا يطبق هذا. ويسمع صوت الضجر.. الضجر من كل شيء! عما يتحدث هؤلاء وعما يتحدث أولئك وعما تؤكده الإذاعة وعما تتبجح به الصحف الضجر! وفي نهاية المطاف هل يمكن الابتعاد عن هذا العالم الملعون؟! كما يمكن

العيش دون الاختلاط بالسياسة! وهل ممكن هذا أم غير ممكن؟ الصحف؟ آه أنت لا تقرأها! حتى إنك لا تشاهد التلفزيون ولا تسمع راديو.

لا تجرب الفهم في عصر معقد! مصلحتك فقط حقيقة. أنت بعيد عن السياسة. إذن الله في عونك، تريد أن تبقى طليقاً.

كن حراً. لا تتدخل في السياسة.. هدئ من روعك ففي فلسطين حيث تجري الحرب بعيداً عن منزلك.. هناك لا يقتلون أطفالك بل أطفال الغرباء. وما شأنك أنت في العراق الجريح وبدموع الأمهات العربيات؟ وحتى بالملايين الجائعة على الأرض؟ ابتعد عن كل هذا.. وعش أرجوك فقط ألا تعجب أو تأخذ على خاطرك إذا اهتز يوماً ما باب غرفتك المصنوع من الخشب بسبب دوي الضربات، تذكر جيداً أن هناك غرباء.

مرت فترة وهؤلاء الغرباء يريدون التعرف إلى شخص بعيد عن السياسة.. أمام باب منزلك (الحر) يقف فتى حامل رشيش. بلباس جندي لفحت وجهه أشعة الشمس. إنه ينظر إليك كما لو أنه ينظر إلى متاعك..

فهو يبتسم عندما تردد على مسمعه شيئاً ما حول حرية الفرد. يمكن أن تنشأ رغبة لدى الفتى. وبالتالي في حالة كهذه مصلحته واقعية أكثر من مصلحتك.. فأنت هزأت كل حياتك بكل ما يحدث في العالم. واليوم هذا الفتى أحب أن يهزأ بك فهذه مصلحته.

لنفترض أنني مخطئ.. ولنفترض أن هذا الفتى هددك، ستنهض للدفاع عن نفسك.. لكن كيف يمكنك القيام بهذا لوحدك؟ كيف؟ عندما ستراودك فكرة من أجل ماذا أنت تعيش. وحياتك سدى. وفي سبيل من أنت تموت؟ أعرف شيئاً واحداً، هو إذا أنت لم تمت بفعل رصاصة أو قنبلة بل مت على سريرك بفعل الخوف فحياتك لا تساوي شيئاً.

إنك تضحك على نفسك في ابتعادك عن السياسة..

العالم بني هكذا! أن تكون بعيداً عن السياسة إنها أيضاً سياسة! محدودة تماماً، ويتضح أنه خلال فترة انعزالك عن العالم كانت الحياة مستمرة ولم يفكر أحد بك بل احتقرك الجميع وهزؤوا بغبائك.

توجد مصالح الدول وتوجد مصالح الامم ويوجد منطق الأحداث. إنما توجد أيضاً مصالح البشرية، في هذه المصالح - مصالح اليوم والغد، يجب التفكير بجدية.

آن لنا أن نفهم أنه على مسرح الحياة لا توجد قاعة للمتفرجين، والمهندس لم يستدرك المكان (فوق المعركة) أو بجانب (المعركة) وهو لم يستدرك مثل هذه الأماكن ليس بسبب عدم توفر الكفاءة لديه، بكل بساطة لا توجد أماكن كهذه.

ولم يكن عبثاً سؤال قول الشاعر التركي: إذا أنا لم أحترق وإذا أنت لم تحترق وإذا نحن لم نحترق فمن إذن يبدد الظلمات.

ليس عبثاً أن وضع الضمير (أنا) قبل الضميرين (أنت) و (نحن).

وإذا كان هناك من يسمي هذا أنانية فأصدقكم القول بأنني إلى جانب أنانيين كهؤلاء لكي يكونوا مجموعة كبيرة على الكرة الأرضية.

الشعر العربي وطني. ولا يمكن أن يوجد بعيداً عن السياسة، وهو يفخر بانفتاحه وقربه من ملايين القراء.

الشعر العربي قائم على قناعة واضحة في عدالة البصيرة الإنسانية والعمل الإنساني والتقلب الإنساني، والشعب العربي المتعدد القوميات قريب إلى الناس، وذلك بإيمانه بالإنسان، وبعمله وبإعادة بناء العالم نحو الأفضل.

إن صدور كتاب شعر جيد هو عيد لدى الجميع..

إنني أرى عملنا وأشعر فقط هكذا أنه من صميم قلب الناثر أو الشاعر إلى قلب القارئ. إنه طريق الأدباء الحقيقي الطريق الجميل الأبدي.



شرُّ أعداءِ المرء..

شعر: جورج يوسف شدياق

المال ليس مُحرّماً.. عندما لا نصبح عبيداً له

راكـضٌ أنـتَ، والـسنونَ عِجـالُ
بعـض مـا نرتجيـهِ حينـاً ضـلالُ
راكـضٌ إثـرَ المـال وهـو سـرابٌ
في صـحارى حياتِنـا وهْـو آلُ
فـيمَ أصـبحتَ للـدراهِمِ عَبْـداً
وقيـودُ الغنـى علينـا ثِقـالُ
عـشقُكَ المـال في اعتقـادي جهْـلٌ
والأُلى قـد هـاموا بـهِ جُهّـالُ
مـا تُرجّـي والعمـرُ يمـضي حثيثـاً
ولنـا مـا طـالَ البقـاءُ زوالُ
عبثـاً تعـدو مُـذ سـنين طماعـاً
خلـفَ أوراق مـا بهـنّ مَنَـالُ
أتظـنُّ الحيـاةَ تـنعمُ يومـاً
بعـدما غلّـتِ الـيمينَ شمـالُ
فـيمَ هـذي الـشّكوى ودونـك عمـرٌ
فاغتنمـهُ مـا لمْ تـضقْ بـكَ حـالُ
دعْ علـى أطـلالِ الـشبابِ بكـاءً
فلقـدْ ضـاقتْ بالبكـا الأطـلالُ








مُـــدَّ كفيــكَ لـــن يـــصيبَكَ زارٍ

فالــذي يُــدمي القلــبَ قيــلٌ وقــالُ

راحـــةُ البـــالِ في اعتقــادي نعمـــى

مــا تمــادى وَهْـــنٌ.. وطــالَ كــلالُ

ذهبـــتْ زهـــوةُ الـــشبابِ صـــباءً

لمْ يُعِـــدْ عمــراً قـــد تـــصرّمَ مــالُ

* * *

صــاحِ تمــشي فــوق الــترابِ اختيــالاً

أتُرانـــا تحـــت الثـــرى نختـــالُ

تتـــساوى في القـــبرِ كـــلّ البرايـــا

مـــا لنـــا بعـــد المـــوت ثـــمَّ مجـــالُ

كـــلُّ مـــرءٍ إلى الفنـــاءِ ويبقـــى

لغـــدٍ ذكـــرٌ طيّـــبٌ وفَعَـــالُ

أو تُجـــدي خـــزائن الأرضِ طُـــرّاً

والـــردى قيـــد خطـــوةٍ يَغْتـــالُ

* * *

عمرُنـــا مـــاضٍ.. والرحيـــلُ قريـــبٌ

ولكَـــمْ مـــرّتْ قبلنـــا أجيـــالُ

فغـــداً ننـــأى لا تـــسلْ كيـــف ننـــأى

نحـــنُ في دوحـــةِ الوجـــودِ ظـــلالُ






مـــا الـــذي ترتجـــي وأخلـــدُ منّـــا
مـــا حُيينـــا جلامـــدٌ وجبـــالُ

أبـــداً لم تـــسرْ خزينـــةُ مـــالٍ
خلـــف نعـــشٍ ســـرى وذاك مُحـــالُ

فلكـــمْ أودى درهـــمٌ برجـــالٍ
ولكـــمْ أزرى بالجُمـــانِ رجـــالُ

حجّـــرتْ مُهجـــةَ الغـــنيّ اللآلـــي
فـــالغني داءٌ للقلـــوبِ عُـــضالُ

أدبـــرَ العمـــرُ فـــاغتنم مـــا تبقّـــى
نحـــنُ شَـــيْبٌ بعـــد الـــصبا واكتهـــالُ

فغـــداً تـــصبح القـــصورُ قبـــوراً
في حنايـاهـــا تنطـــوي الآمـــالُ

لا تلمْـــني إذا محـــضتكَ نُـــصحي
في ثنايـــاهُ مـــا قـــسا إدلالُ

* * *

يـــا أخـــي دعْ عبـــارةَ المـــالِ جَنْبـــاً
فـــالغنى كـــأسُ خمـــرةٍ وجمـــالُ

ســـوف تُطـــوى صـــحائفُ العمـــرِ يومـــاً
ويُـــوارى علـــى الـــشفاهِ ســـؤالُ




منصور سلطان الأطرش في الذاكرة

بقلم: معين حمد العماطوري

يعد المناضل القومي والوطني منصور سلطان باشا الأطرش واحداً من أهم الشخصيات الوطنية البعثية التي قدمت للوطن الكثير من التضحيات، وبرحيله فقدت الساحة الوطنية السورية والقومية العربية واحداً من رجالاتها الذين تميزوا بروح النضال القومي العربي، فهو سليل عائلة كتبت بدمائها أروع ملاحم الفداء وضحت بأرواحها وأموالها في سبيل عزة وطنها وكانت على الدوام سيفاً مسلولاً في وجه المحتلين.. حيث الدماء العربية التي تجري في عروقهم وتلك الفروسية ذات المعالم الواضحة والبأس والإباء والكرم، وكل هذه العلامات المضيئة التي اهتدى بها منصور وسار على هديها، هي التي جعلت من إسهاماته المضافة في نضاله القومي والوطني بعد أن أصبح من الشخصيات الأساسية المناهضة للدكتاتورية والرافضة للانفصال لتعيش سورية تجربة وطنية ديمقراطية الفذة فيها روح الانتماء مع مخزونه الوطني من المشاعر المتدفقة والتي وجد متنفساً لها في عمله النضالي.

منصور الأطرش المولود في قريته القريا عام ١٩٢٥ وهو من أطفال وادي السرحان عندما كانت الثورة في أوجها وكان الثوار العرب بقيادة والده المغفور له سلطان باشا الأطرش في النبك وبمنطقة وادي السرحان الواقعة في المملكة العربية السعودية، والتي ترتفع عن سطح البحر ما بين ٢٠٠ - ٤٥٠ متراً، منطقة صحراوية

وأعشابها صحراوية، وعلى منخفض كبير تحتله صحراء رملية تكثر فيها الكثبان، وتنحدر إليها أودية من المرتفعات المجاورة، حيث لا يوجد في وادي السرحان مراعٍ أو أعلاف لخيول الثوار بالإضافة للحرارة الشديدة التي لا تحتملها الخيول، ليرحلوا إلى النبك في قريات الملح بالقرب من بلدة كاف،ومن مدنها الحديثة، ديرة النبك عبارة عن صحراء مهجورة تتخللها جبال صوانية وكثبان رملية لا تخلو أرضها من بعض أنواع الشجر البرية (كالطرفاء، والرتم) والأمصع وهو نبات ذو رائحة زكية، أما دخان الطرفاء فيدمع العيون وهو بطيء الاشتعال، أما الأمصع فله مواسم معينة فيه حبوب حمراء كحبة الحمص، وطعم حلو، كان الثوار يسمونه (عنب الصحراء).

وأبرز ما في النبك هو عين (جوخة) المحاطة بخمس نخلات باسقات، وهي عبارة عن نبع ماء بعمق مترين إلى ثلاثة أمتار مطوية جدرانه بالحجارة بقطر لا يقل عن ثلاثة أمتار تستفيد منها عشائر البدو النازحة أو المتنقلة بين الأردن والسعودية في مواسم التشريق والتغريب لإرواء أغنامها وإبلها.وقد خلت الأرض من أنواع الأعشاب والنباتات التي اعتاد الثوار أكلها في أرض الجبل (كالعكوب، والرشاد، والهندباء، والخس البري، والكراث... إلخ).

المناظر الصحراوية ثابتة تقريباً صيفاً وشتاءً فالحرارة شديدة بل حارقة في الصيف وكثيراً ما كان الثوار يسفحون الماء في أرض الخيام، ويجلسون فوق الماء بثيابهم للتبريد بعض الشيء.

أما الأطفال الرضع فكانت نسبة الوفيات بينهم مرتفعة لعدة أسباب منها سوء التغذية للكبار وللصغار، وأطفال الصحراء لم يعرفوا من أنواع الثمار والفواكه إلا عنقود العنب ورأس البطيخ قبل النزوح إلى وادي السرحان، وهناك عرفوا عنقود البلح فقط، أما التفاح والكرز والخوخ والموز إلخ، لم يعرفوه إلا في الصور الموجودة بالكتب لم يذوقوا طعمه لا حلواً ولا مراً.

هكذا عاش أطفال الصحراء جميعاً محرومين معذبين جياعاً، وهكذا عاش المجاهدون وعائلاتهم مدة اثنتي عشرة سنة.

إذاً لم يكن لمنصور الأطرش أن يعيش إلا بين الدفاع عن الوطن والذود عن أرضه وعرضه مع والده والثوار العرب الأشاوس فهو من أمضى طفولته مع من يجترع مرار العيش لأجل حرية الوطن والاستقلال، وهو من تربى على النضال الثوري منذ ولادته ، لذا استطاع في شبابه أن يكون من الشخصيات الوطنية التي ناضلت في سبيل وطنها وقدمت له ما لديها من مقدرة ثقافية واجتماعية لتضع بصمة وعلامة بارزة في جبهة التاريخ العربي المعاصر بأن منصور سلطان الأطرش هو من تلك الدار التي منها انطلقت الثورة السورية ووالده كان قائدها ليس من قبيل المنصب بل لزوماً لرجل الثورة الكبير الذي حمل بين أنفاسه عبق الوطن وتاريخه المجيد ليطرد

الاستعمار العثماني والفرنسي عن بلاده بعد أن حمل شعار وطنه في فكره وعلمه في قلبه والذي اتخذهما دليلاً عندما أصدر بيانه الأول وهو بيان الثورة /الدين لله والوطن للجميع/ من معقل تلك الثقافة الوطنية بزغ نجم منصور الأطرش ليتسلح إضافة إلى وطنيته بالعلم، السلاح الأنجع في تنمية حركة التحرر الوطني وليحمل دبلوماً في العلوم السياسية من الجامعة الأميركية عام ١٩٥٠ وإجازة في الحقوق في عام ١٩٥٤، ليصبح الصوت الوطني الصادق عن أبناء عشيرته الذين انتخبوه في البرلمان السوري ممثلاً عنهم عام ١٩٥٢ ، بعد إن شارك مع رفاقه المناضلين الثوريين في تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي وطليعته الثورية ويتبوأ منصب وزير الشؤون الاجتماعية والعمل عام ١٩٦٣ ومن ثم رئيس للمجلس الوطني لقيادة الثورة في عام ١٩٦٥، وفي نكبة العراق الأخيرة كان عضواً مؤسساً في لجنة نصرة العراق المكلوم عام ٢٠٠١ ورئيساً لتجمع لجان نصرة العراق في بلده الحبيبة سورية عام ٢٠٠٣ وعضواً في المؤتمر القومي العربي عام ٢٠٠٤ .

وعندما اشتد عليه المرض أشرفت القيادة السياسية وعلى رأسها سيادة الرئيس بشار الأسد على علاجه حيث نقل إلى مشافي وجامعات خاصة لتلقي العلاج المناسب وهذا لعمري تكريم غيور لقائد جسور في علاج المناضلين الوطنيين ، حيث شيعت محافظة السويداء يوم الجمعة الواقع في ٢٠٠٦/١١/١٧ وفي موكب شعبي ورسمي ووطني مهيب المغفور له منصور سلطان الأطرش عن عمرٍ تجاوز الثمانين قضاه في تعميق الثقافة الوطنية للدفاع عن قضايا بلاده ونصرة أبناء عروبته.

ونعته وسائل الأعلام. وكتب في صحيفة تشرين الشاعر الكبير سليمان العيسى أبياتاً من الشعر يرثي فيها الراحل:

يا بن العرين ويا رفيق جراحنا

والريح تمضغ حلمنا الموءودا

سيظل بيتك عبر حالكة الدجى

ناراً تضيء دربنا ووقودا

امدد يديك إلى الرفاق من الردى

الفجر فجرك ما يزال بعيدا

أخيراً رحم الله منصور الأطرش الذي يعد علماً من أعلام الثورة والنضال والوطنية ونسأله تعالى أن يسكنه فسيح جنانه وأن يلهم أهله وأصدقاءه وذويه الصبر والسلوان، وعهداً علينا أن تبقى في ذاكرة الوطن يا أبا ثائر أنت وكل المناضلين من أبناء وطني ما حيينا في الوطن.

العلامة حسن سعيد الكرمي ١٩٠٥- ٢٠٠٧

بقلم:
يوسف عبد الأحد

عن مئة وعامين رحل حسن الكرمي في الخامس من أيار ٢٠٠٧ في عما ن/ الأردن.

أديب وشاعر ومعجمي ومترجم وإعلامي ولغوي وهو عضو في جمعية (العروة الوثقى) في لندن.

ولد في مدينة طولكرم بفلسطين عام ١٩٠٥، والده الشيخ سعيد الكرمي (١٨٥٢ - ١٩٣٥) قاضي المحكمة الشرعي، وشقيقه الشاعر عبد الكريم الكرمي أبو سلمى (١٩٠٩ - ١٩٨٠).

تلقى دراسته الابتدائية في طولكرم ثم تابع دراسته الثانوية في دمشق في مكتب عنبر حيث كان والده يعمل في مجمع اللغة العربية بدمشق.

وفي عام ١٩٢٤ عاد إلى فلسطين والتحق بالكلية الإنكليزية في القدس وتخرج فيها سنة ١٩٣٠ حاصلاً على البكالوريا الفلسطينية، وعيّن مدرساً في مدرسة الرمله ثم في الكلية الرشيدية ثم في الكلية العربية في القدس.

سافر إلى انكلترا للدراسة والتحق بجامعة لندن للتخصص في التربية والتعليم وعلم الإحصاء التربوي ونال شهادة الاختصاص في عام ١٩٤٥.

عاد إلى فلسطين وعمل معلماً للإنكليزية في إدارة المعارف العامة ثم عيّن بدرجة مفتش بهذه الإدارة عام ١٩٤٥، وكان اختصاصه امتحانات المعلمين وامتحانات اللغة العربية، وكان الأمين العام لمجلس البعثات العلمية لعموم حكومة فلسطين.

ولما انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٤٨، وبسبب الاضطرابات والأوضاع المأساوية في فلسطين اضطر وزوجته أمينه وأولاده الثلاثة إلى مغادرة منزلهم المحتل والسفر إلى لندن.

عيّن بلندن في القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية كمراقب لغوي حتى سنة ١٩٦٨ وكان يقدم برنامجاً أسبوعياً بعنوان (قول على قول) وأخرج عدداً من البرامج لتعليم اللغة الإنكليزية ونشر مقالاته في الصحف والمجلات وفي بعض الموسوعات عن اللغة العربية وآدابها منها موسوعة (تشمبر) وموسوعة (نيوووررلد).

استمر في هذا العمل مدة طويلة ونال شهرة واسعة على برنامجه (قول على قول).

وفي عام ١٩٦٩ نال وساماً من ملكة بريطانية إليزابيت الثانية تقديراً لخدماته الجليلة في مجال العمل الإذاعي، ومنح لقب عضو شرف في مجمع اللغة العربية الأردني عام ١٩٨٣، كما منح وسام القدس للثقافة والفنون في يناير ١٩٩٠ وفي عام ٢٠٠٦ منح دكتوراه فخرية من قبل جمعية المترجمين العرب.

بقي الكرمي في بريطانيا مدة ٤١ عاماً يعمل في إذاعة بي بي سي لندن حتى أُحيل إلى التقاعد.

عاد إلى عمان عام ١٩٨٩ واستقر فيها وأمضى بقية عمره في تأليف المعاجم وقد بلغ عددها أحد عشر معجماً إلى أن وافته المنية في الخامس من أيار ٢٠٠٧ ودفن في عمان/ الأردن.

مؤلفاته وترجماته

١- خروج العرب من إسبانيا (مترجم).
٢- قول على قول في الأدب والشعر (١٢ جزءاً).
٣- قاموس المنار معجم إنكليزي عربي - بيروت ١٩٧٠.
٤- طبقة الفقهاء - أربعون مقالاً في الفلسفة.
٥- فلسطين وموقع القداسة منها في نفوس المسلمين (بالإنكليزية).
٦- حياة قطّ.
٧- التفكير المستقيم والتفكير الأعوج - الكويت ١٩٧٩ (ترجمة).
٨- سلسلة المغني قاموس إنكليزي عربي وهي ثلاثة معاجم المغني والمغني الكبير والمغني الأكبر ١٩٨٧.
٩- قاموس الهداية عربي عربي.
١٠- مذكرات حسن الكرمي - ذكريات في ٧٥ سنة ١٩٩١.
١١- معنى الصلاة في الإسلام.




نخل العراق..

شعر: دولة العباس

لن ينحني نخلُ العراقِ.. ولا
شعب العراق سيقبلُ التذليلا

سيظلّ هذا النخل يسمق شامخاً
ويظلُّ شعب الرافدين أصيلا

فدم العروبة في الفرات جداولٌ
تجري بأوردة النخيل هيولى

* * *

فرسان بابلَ لم تزل مشدودةً
للخيل تُردي طامعاً ودخيلا

من كانت الدنيا حضارتها ازدهتْ
أدباً وعِلماً عزّةً وأصولا

* * *

بغداد.. مَن بغدادُ؟ يعرفها الورى
للعاصمات غدتْ هوى وميولا







بغـداد.. مـن بغـداد يرهبهـا العـدى

قـد صيّرت فكـر العـدى مـذهولا

كـم قاومـتْ أعـداءها.. وتـبخترتْ

تعطـي الـدروس إلى العـدو فـصولا

بغـداد رمـزٌ لـلشهادة والفـدى

بغـداد لا.. لـن ترهـب التهـويلا

سـتظل تحمـي بالـدماء.. تُرابهـا

وتـصوغ مـن زهـر العُـلا إكلـيلا

* * *

يـا عاشـقاً سـفْكَ الـدماء وطعمهـا

وتحـارب القـرآن.. والإنجـيلا

أو مـا استحيت مـن الطفولـة بـسمةً؟

ومـن الـبراءةِ وردةً وحقـولا؟

باسـم الحـضارة قـد ذبحـت طفولـةً

وحرمتهـا الأحـضان والتـدليلا

* * *

يـا رب إنّـا في مجاهـل غابـةٍ

قفـراء نحيـا.. نرقـب المجهـولا

مـن نـصّبَ البـوشَ الغـبيَّ علـى الـورى

ليـصير عـن أمـر الـورى مـسؤولا؟







كيف السبيل إلى الخلاص من الأذى؟

وحضارة الغابات تنجب غولا

* * *

باسم الطفولة والبراءة والمنى

نزجيك لعنات الشعوب سيولا

فاغرق بها حتى الثمالة واغتسلْ

بدم الشعوب وزد بهم تقتيلا

حكم الشعوب عليك آتٍ فانتظر حُكم

الشعوب فلن يغيب طويلا

* * *

ستظلُّ يا بوش الغباء محاصراً

بالخوف مسلوب الأمان عليلا

وتظلُّ أرضُ الرافدين خصيبةً

ويظلُّ وجهك يا عراق جميلا

* * *

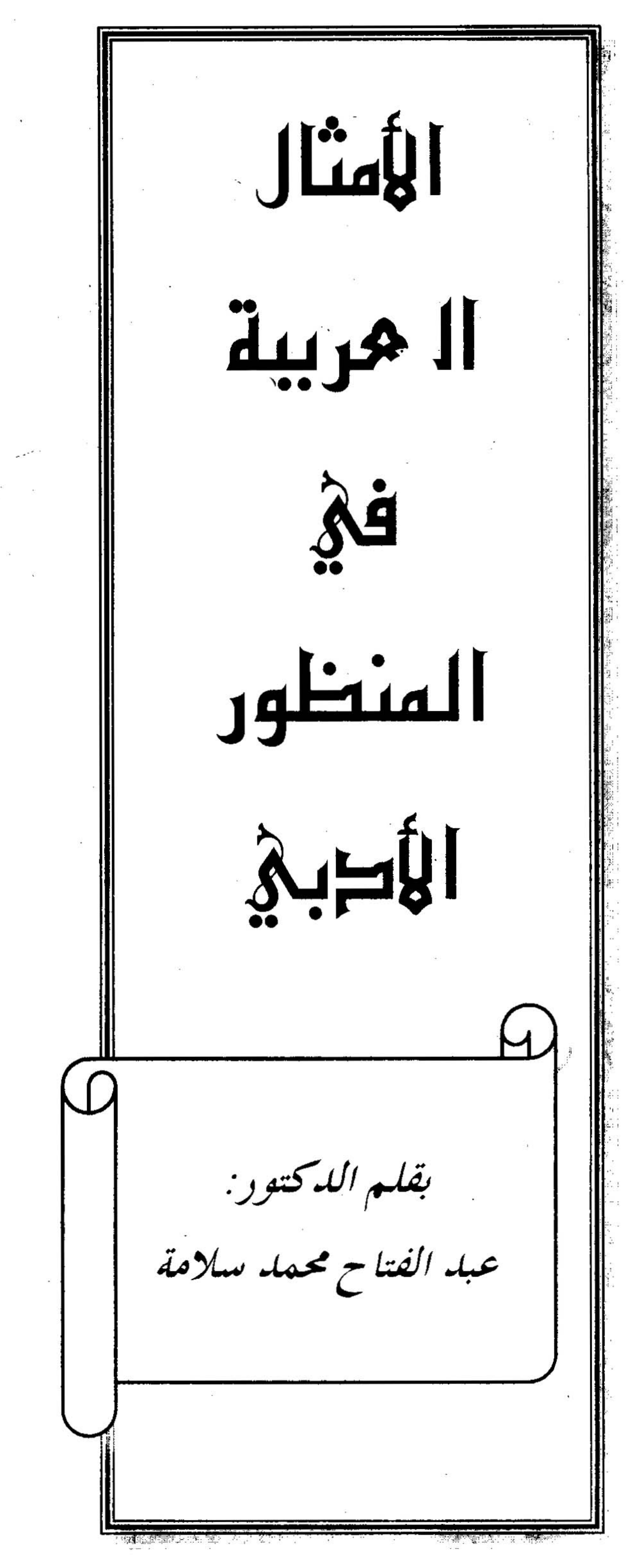
مهما ألمَّ بنا، وداهمنا الأسى

فصمودنا جيلٌ يلاحق جيلا

لا نرتضي بسوى انتصارك أُمتي

أو بالشهادة والفدا بديلا



المثل قول موجز سائر على الألسنة، وارد في حادثة أو مستمد من ملاحظة في البيئة، أو مرتبط بأشخاص اشتهروا في صفات محبوبة أو مكروهة.

ويضرب المثل في موقف يشبه الحالة التي ورد فيها، مع المحافظة على لفظ المثل وضبطه، ويكون في هذه الحالة استعارة تمثيلية.. أما الأمثال التي ليس لها قصة حين استعمالها تعد تشبيهاً مثل: هو حاتم في الجود..

وبعض الأمثال يرتبط بحادثة واقعية، وبعضها يرتبط بقصة خيالية أو حكاية رمزية على ألسنة الحيوان والطير.

ويجتمع في المثل أربع صفات لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، إصابة المعنى، حسن التشبيه، جودة الكناية، فهو نهاية البلاغة.

قال أبو عبيد: الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت توشي كلامها، فتبلغ بها حاجاتها بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وقد ضربها النبي صلى الله علي وسلم، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف:

ومن أمثالهم:

سبق السيف العذل.. ويضرب لفوات الأمر الذي لا يمكن تداركه..

قبل الرماء تملأ الكنائن.. ويضرب لضرورة الاستعداد قبل التنفيذ..

مكره أخاك لا بطل.. ويضرب لمن يرغم على ما يكره..

إن غداً لناظره قريب.. ويضرب للانتظار وتوقع أمل قريب..

أعط القوس باريها.. ويضرب لمن يتصدى لشيء لا يحسنه، ويطلب أن يتركه لمن يجيده..

وضرب الأمثال يستفاد منه في أمور كثيرة: التذكير والوعظ، والحث والزجر، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال

تصور المعاني بصورة الأشخاص فتثبت في الأذهان.. ومن ثم كان الغرض من المثل: المبالغة في الإيضاح والبيان حتى يصير الخفي جلياً، والغائب مشاهداً، والمتخيل كالمتحقق، والمتوهم كالمتيقن.

وقد كثرت الأمثال في القرآن وفي سائر الكتب المقدسة، وفي الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال..

وقد أبرز علماء البلاغة قيمة التمثيل وأثره في النفس، وكيف يودع في التعبير من الأسرار والجمال ما يسمو بالمعنى ويصل إلى الغرض منه.

يقول عبد القاهر: "اعلم أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفس وأعظم.. وإن كان ذماً كان مسه أوجع، ووقعه أشد . وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر.. وإن كان افتخاراً كان شأوه أشد، وشرفه أحد..وإن كان اعتذاراً كان إلي القلوب أقرب، وللقلوب أخلب. وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر.. وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعوبه..

والزمخشري يرى أن لاستحضار العرب للأمثال شأناً: ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه الأمثال.. لأن الأمثال تصور المعاني تصوير الأشخاص، والأشخاص أثبت في الأذهان، ولاستعانة الذهن فيها بالحواس، بخلاف المعاني المعقولة، فإنها مجردة عن الحس، ولذلك تكون دقيقة خفية..

ومن أنواع المثل: "المثل القياسي": وهو صورة بيانية لتوضيح فكرة ما، عن طريق التشبيه والتمثيل، ويسميه البلاغيون "التشبيه التمثيلي".. ويكون مركباً، لأنه تشبيه شيء بشيء، لتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين إلى الآخر.. وذلك بقصد التأديب والتهذيب، أو التوضيح أو التصوير.. ويتميز هذا النوع بالأطناب، والجمع بين عمق الفكرة وجمال التصوير.

وهناك "المثل الخرافي": وهو حكاية ذات مغزى على لسان حيوان أو طائر، لغرض تعليمي، أو فكاهي، وما أشبه ذلك..

وعلى هذا: فالفرق بين المثل الخرافي والقياسي: أن الأول تنسب الأحاسيس الإنسانية فيه إلى غير الإنسان من حيوان أو طير أو غيرهما..

أما الثاني أي القياسي فالحيوانات فيه إن استخدمت، لا تعدو أن يكون الغرض من ورائها توضيح فكرة، دون أن تخرج بذلك عن طبيعتها ونوعها..

والمثل الخرافي: يرمز إلى الأشياء، أي يقال لشيء ويراد به شيء آخر.. أما القياسي: فيراد به الأشياء المذكورة فيه، لتوضيح الفكرة عن طريق التشبيه والتمثيل..

معنى ضرب المثل

يقول الله تعالى "وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" فما معنى ضرب المثل!

قيل إنه مشتق من قولك: "ضرب في الأرض" أي سار فيها.. فمعنى ضرب المثل حينئذ جعله ينتشر ويذيع ويسير فيه البلاد..

وقد يكون معنى "ضرب المثل" نصبه للناس باشهاره، لتستدل عليه خواطرهم، كما تستدل عيونهم على الأشياء المنصوبة.. وعلى هذا يكون اشتقاقه من قولهم "ضرب الخباء" إذا نصبته وأثبت طنبه..

قال الشريف الرضي: قوله تعالى "كذلك يضرب الله الحق والباطل" أي ينصب منارهما،

ويوضح أعلامهما، ليعرف المكلفون الحق بأعلامه فيقصدوه، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه.

وقد يفهم من ضرب المثل صنعه وإنشاؤه، فيكون مشتقاً من ضرب اللبن وضرب الخاتم.. وقد يكون من الضرب بمعنى إبقاء شيء على شيء.. ومنه ضرب الدراهم أي إيقاع النموذج الذي به الصك، على الدراهم، لتنطبع به، فكأن المثل مطابق للحالة التي جاء لإيضاحها..

ويلاحظ أن ذيوع الأمثال وانتشارها في الجاهلية يعزى إلى:

أنها بيئة فطرية تغلب فيها الأمية، وتشتد الحاجة إلى التجارب المستخلصة في أقوال موجزة يهتدى بها..

أن الأمثال صدرت في أكثر حالاتها، عن ذكاء ودقة ملاحظة، ونفاذ بصيرة، مما يجعل لها معنى صادقاً مقبولاً لدى معظم الناس.

تصاغ الأمثال غالباً في عبارة حسنة، فإذا ما ضربت ظهرت فيها دقة التشبيه، وفي ذلك من الجمال الفني، ما يرضي ذوق العربي، ويغريه بكثرة استعمالها، فتنتشر على الألسنة.

ارتباط المثل بحادثة أو حكاية: وهذا يساعد على ذيوعه وشيوعه..

المثل صوت الأمة

تأتي الأمثال تصويراً نابضاً لحياة الأمم والشعوب، وترجمة صادقة لما تجيش به من مشاعر وأحاسيس، فهي مرآة تنعكس عليها صورة الحياة السياسية والاجتماعية والطبيعية، وهي تعبر عن عامة الناس ونفسياتهم، لصدورها دون تكلف أو تصنع ولذلك يتجه الباحثون في طباع الأمم إلى دارسة أمثالها.. لذلك كانت الأمثال لساناً ناطقاً بحالة الأمة، يضاف إلى هذا:

أنها ترتبط بالبيئة وما فيها من حرب وصلح ومفاوضات.

أنها تعبر عن صفات العرب وأخلاقهم وعاداتهم.

أنها ترتبط بحياتهم وأحداثهم، وتعبر عن طرق تفكيرهم ودقة ملاحظاتهم..

ولهذا تتنوع الأمثال من أمة إلى أخرى، تبعاً لاختلال البيئة والثقافة، وتباين العصور..

من أمثال القرآن

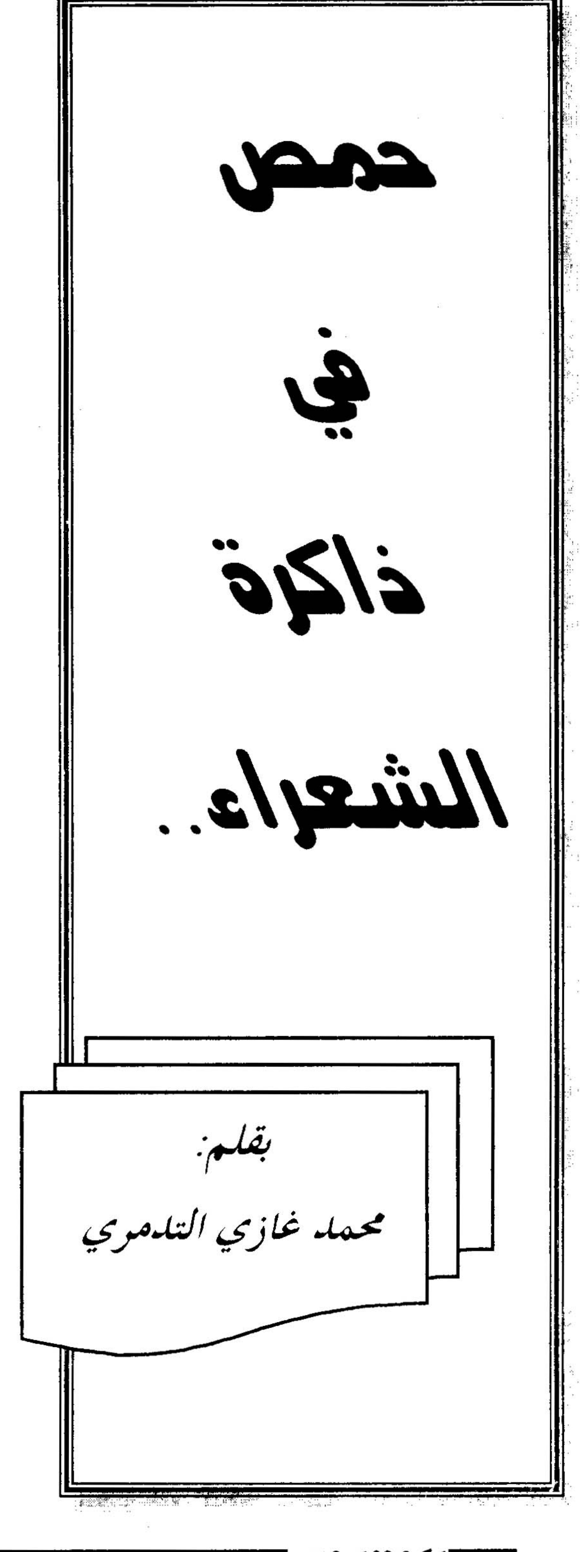
كثر ورود الأمثال في القرآن الكريم حيث كان لها تأثيرها البياني في توضيح المعنى، أو الدعوة إلى خلق كريم، أو النهي عن صفة ذميمة.. وإليك هذا المثل:

قال الله تعالى: ((ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة..))..

وفي هذه الآية يضرب القرآن مثلاً رائعاً لمن ينقض عهده، ولا يفي به، فيمثله بتلك المرأة الحمقاء، التي كانت تنقض غزلها، بعد أن تحكمه وتبرمه وتقضي في ذلك وقتاً طويلاً.. وينعي على أولئك الذي يتخذون عهودهم وأيمانهم مكراً وخديعة للغير.. كأن يجدوا جماعة أكثر عدداً من الجماعة الذين عاهدوهم، فينقضون عهدهم معهم ليعاهدوا الجماعة الأكثر.

قال الرواة والمحدثون: "كانت امرأة في قريش تسمى رابطة بنت عمرو بن سعد.. وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة.. فكلما غزلت غزلها من الصوف أو الشعر أو الوبر..تعود فتنتقضه، فهي لا تكف عن العمل ولا تبقي الصوف أو الشعر أو الوبر فينتفع به، ولا هي تكف عن النقض فتبقي الغزل ينتفع به..

فكذلك الذي ينقض العهد.. لا هو ترك الأمر من غير عهد، ولا هو وفى بعهده حينما عاهد..



يشكل ارتباط الشاعر بالمدينة التي أنجبته هاجساً حميمياً، يُملي على النفس شعوراً بالانتماء لكل زاوية وشارع وحي شهد جزءاً من ذكريات طفولته وشبابه، وكلما ابتعد عن المدينة تنامى في أعماقه هذا الانتماء الذي يولد صوراً ومعاني سامية من الشوق والحنين.

وحمص الغافية على كف العاصي بسهولها الخضراء، وبساتينها الغناء، وميماسها السلسال، وأحيائها القديمة بشوارعها الضيقة، وبيوتها الحانية، لم تغب لحظة واحدة عن الشعراء الذين اضطرتهم أسباب الحياة إلى النأي عن حماها، بقيت ماثلة في أعماقهم، تحرك مشاعرهم، وتوقظ في حناياهم أعماق الحنين الأبدي.

فالشاعر المهجري المرحوم (نبيه سلامة) الذي فارق (حمص) في ريعان شبابه، مخلّفاً فيها أهله وخلانه، وذكريات طفولته المرسومة على جدران شوارع (الحميدية وبستان الديوان، والورشة) تبقى ماثلة في مخيلّته لا تمحوها الأيام، ولا تبدّل ملامحها التجارة، أو السعي خلف المادة والثراء، فتبقى أثراً للزمان الذي مشت مواكبه في أحياء وشوارع المدينة، فيقول واصفاً أهلها ومفاتنها:

مشى الزمان وحمص في مواكبه
فتْيةُ العزم بالأمجاد تكتحل

وقد تزول عن الأفلاك فتنتها
وحمص ما برحت في تاجها الشغل

مدينةٌ تملأ الدنيا بروعتها
عرائسُ الحسن في أعتابها خول

أرجاؤها شهبٌ أبناؤها نجبٌ
جنّاتها رحبٌ، أنهارها عسلْ

إن قـــال عالمهـــا، فـــالأرض معنيـــةٌ
أو قـــال قائـــدها فـــالكون يمتثـــل

ويزور الشاعر المهجري المرحوم (زكي قنصل) مدينة حمص أكثر من مرة، وفي كل زيارة كان يحلُّ فيها ضيفاً كريماً على أهلها وأدبائها الذين تربطهم بالشاعر أكثر من صلة حميمية وفي إحدى هذه الزيارات، وبعد أن يزور عاصيها، ويتجول في شوارعها، ويلمس نهضتها الصناعية، يخصّ المدينة بقصيدة يعبّر من خلالها عن مشاعره التي أيقظت في أعماقه إحساس الانتماء إلى هذه المدينة التي تنزّهت شمسها عن المغيب فقول:

طلعت شمسنا فيا شمس غيبي
إنّ حمصاً عروس كل أديب
ما لقيتُ الهناءَ والسعد إلاّ
في حمص أهلها النفير الخصيب
بارك الله بالشموس فمنهنّ
رجائي ومن شذاهنّ طيبي
إنْ زكتْ خمرتي فهنّ الدّوالي
أو خبت بسمتي فهنّ طبيبي
حمص، ياحمص أنت مهوى فؤادي
فخذيني إلى ثراك الحبيب
قبل أن ألتقيك كنت غريباً
فارفقي، فارفقي بوجد الغريب
كلّ شمسٍ إلى المغيب، ولكن
شمس حمص تنزّهت عن مغيب

وتنتهي الحرب الكونية الثانية، ويأخذ الشوق يحضّ الاستقلال، وكان في مقدمة العائدين الشاعر (حسني سعد الله) فأقام له الأصدقاء مأدبة وداع تبارى الشعراء فيها في بث عواطفهم نحو المسافر الذي سيكحّل عينيه برؤية الوطن الأم وينتهز الشاعر (نبيه سلامة) هذه لفرصة، وينظم قصيدة يعبر من خلالها عن شوقه وحنينه إلى مدينة حمص ومما قاله في هذه القصيدة التي يعود تاريخها إلى عام ١٩٤٦:

وقائلةٍ: هذا حبيبك راحلٌ
فقلتُ لها: يا هند ليس براحل
يسير ويبقى في القلوب مصوّراً
وينزل في الأوطان خير منازل
تطير به الأشواق للبلد الذي
كسته يدُ الرحمان أبهى الغلائل
يحنّ إلى حمص، وما حمص للذي
تعشّقها إلاّ عروس الخمائل
يُعانقها العاصي عناق متيّم
ويورد ظاميها أحبّ المناهل
تذكرّت حمص فاستهلّت مدامعي
حنيناً إلى رهط الصحاب الأوائل
فأنت رسول النازحين فسرْ على
قلوب تحفّ الركب طول المراحل
ومتّع بأشتات المحاسن ناظراً
وعُدْ حاملاً أحبّ المحامل
وسلّم على الحسناء تحت حجابها
وبلّغ شباب الحي خير الرسائل
وإن تسأل الأوطان عن فلذّاتها
فقل: هم بين المستعدّ وقافل

إنّ ما تملكه مدينة (ابن الوليد) من موقع متميّز، وبما حباها الله من سحر وجمال، شكل أكثر سبب دعا سكانها إلى الالتصاق بها، والانتماء لكل حبة تراب فيها، والشاعر المغترب (نصر سمعان)

المولود في أحد أحيائها القديمة، والذي لعب في شوارعها، وشبّ على ماء عاصيها، وغادرها يافعاً، تأخذ مكاناً لا تبرحه في قلب الشاعر المرهف، فكتب في وصفها أكثر من قصيدة تعبّر عما يعانيه من يبتعد عن هذه المدينة الآسرة:

خذوا فؤادي ووجداً بات يقلقني
أو لا هبوا لي فؤاداً غير مقلاق
وحدّثوني عن العاصي ودرّته
ومجد قوم بنور الفضل ألآق
قالوا: أتصبو إلى حمص، فقلت لهم:
قلبي بغير هواها غير خفاق
ما حمص إلاّ يدُ لله فاتنةٌ
بوابلٍ من عيون الجود مغداق
تلك الخمائل جنّاتٌ منوّرة
بكلّ زهوٍ زكيّ الطيب عبّاق
والطير ما بين تغريدٍ وزقزقةٍ
والماء ما بين فوّارٍ ورقراق
وحمص تنثر في الدنيا نوافحها
شذاً تؤديه آفاق لآفاق
يا حمص لولا سنا ذكراك ما عرفت
روحي سنا أملٍ في العيش برّاق
ناديكِ يا درّة الميماس منبر من
ثاروا وجاروا على ضيْمٍ وإرهاق
إن يذكر الدهر فرسان الجهاد فكم
أنجبْتِ يا حمص منهم كلّ سبّاق

ويقول في قصيدة طويلة بعنوان (أطليّ يا حمص) إثر نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ مركزّاً بخطابها على مدينته التي يجد فيها الأمل والرجاء، وفي شبابها الوعي القومي، والأمل العربي الكبير:

أطلّي فالصباح أطلّ عيدا
أنار بنور طلعته الوجودا
وتيهي عزّةً وعلىً ومجداً
فقد أنجبْتِ للدنيا الأسودا
وما عاصيك إلاّ فيض خيرٍ
تسلسل رقّةً وانهلّ جودا
نشرتِ النور في الآفاق لّما
رفعت لكلّ مكرمة بنودا
شبابك كلّما دعت المعالي
تهادى تحت رايتها جنودا
أهيبي يا ابنة العاصي بقومٍ
أحالوا أبيض الصفحات سودا
توحدّكم عروبتكم فشلّوا
يمين مضلّلٍ رسم الحدودا

ويطل الشاعر الحمصي نسيب عريضة وقد تألق في قلبه حب المدينة تألقاً صوفياً مؤكداً عراقته في حمصيته، مفاخراً ببلده، شديد الإعجاب بأهله لدرجة جعلته يرى حجارتها السوداء أحلى من المرمر والرخام، فيجعل منتهى أمله في الحياة أن يعود لحمص ولو حشو الكفن، وأن يكون ضريحه من حجارة سوداء:

صور تلوح لخاطر المعمود
ما بين أرياض المنى والبيد
خفاقة فيها بنود العيد
بسامة فيها ثغور الغيد

وبعد أن يتحدث الشاعر في المقطع الأول عن صور حمص في خاطره نجده في المقطع الثاني يراقب برقها ويذوب حنيناً إليها:

وقف الفؤاد أسير بارق نارها
يهفو إلى ما لاح من أسرارها
لمن الديار تذوب من تذكارها
من بعد طول نوى وفرط جحود
يا موثقاً من شوقه بقيود

ثم ينكر على قلبه شدّة خفقانه وهو الذي ظنّه قاسياً صلب العود:

يا قلب، ما هذا الخفوق وما ترى
في ما توهمه الخيال صورا؟
تبكي، كأنك بعض أفئدة الورى
ووظننت أنك صرت صلب العود
أشجتك رؤيا يا أخا الجلمود؟

ونرى عروس العاصي تختال أمام عينيه بين حدائق عاصيها المنساب رقة بين بساتينها وحقولها الخضراء:

رفعت لطرفك من مكانٍ قاص
تختال بين حدائق وعراص
أعرفت يا قلبي عروس العاصي
محيا أمانينا، ومحيا الجود
ونعيم راضٍ بالوجود سعيد

ويقف في مقطع آخر وقفة المتسائل عن جبروت حمص، وعن وفائها، "إنها بلد الهدى قد تقول ولكن أحجارها سود، نعم للّه درّ هذا السواد المعبود، يا حمص يا أم الحجارة السود":

جثمت بكلكلها على درب الأمم
جبارة من طبعها رعي الذمم
بلد الهدى، أحجارها سود - نعم
للّه درّ سوادك المعبود
يا حمص، يا أمّ الحجار السود

ويعدد في مقطع آخر، مرابع حمص (الميماس الذي يحنّ إليه، والدوير الذي يشتاق إلى خمره وكأسه وغزاله وكناسه، ويعرج على قبر سيف الله خالد بن الوليد):

ماذا يكابد في النوى ويقاسي
صبٌّ يحنُّ إلى حمى الميماس
وإلى الدوير - إلى ربوع الكاس
وكناسها وغزالها الأملود
وإلى مغاني نعمة وسعود
حمص العديّة، كلنا يهواك
يا كعبة الأبطال، إن ثراك
غمدٌ لسيف الله في مثواك
ولكم لنا من خشعةٍ وسجود
في هيكل النجوى، ومنٍ تمجيد

وتبلغ القصيدة ذروة المأساة فيصرخ في حرقة وقد طال بعاده عن وطنه متى أعود؟ ويوصي إذا لم يعد حيّاً أن يُعاد إليه ميتاً وأن يجعل ضريحه من حجارة حمص السوداء:

يا دهر، قد طال البعاد عن الوطن
هل عودة ترجى وقد فات الظعن؟
عد بي إلى حمص ولو حشو الكفن
واهتف: أتيت بعاثر مردود
واجعل ضريحي من حجار سود

ولم يعد الشاعر لا حيّاً ولا ميتاً، ولم تنفذ وصيته، (فقد عجزت مدينة كاملة أن تنفذ وصيّة ولد من أولادها، وشاعر كبير من شعرائها، أحبّها كما لم يحبّها أحد، ولم يكلّفها أمراً عظيماً، كلّفها أن تجعل قبره من حجارتها السوداء).

لقد كانت حمص النبض الحي في شرايين شعرائها، والأغنية الصّداحة على أوتار قلوبهم، مؤكدين حبهم وانتماءهم غير المحدود لكل شارع رسموا على جدرانه ذكرياتهم الطفولية، كل حي شهد شبابهم كما شهد على عواطفهم ومشاعرهم النبيلة، وكل نسمة هواء هبت من أغصان صفصافها على ضفتي العاصي، وبساتين الدوير وميماس ديك الجن.




كن مع الله..

شعر: عدنان أبو عطا

يـــا قلـــب مـــا لـــك والـــدنيا وغمرتهـــا
يـــسقي فـــؤادك أحـــلامٌ وأحـــزانُ

تبيـــتُ في هـــمٍّ عـــيشٍ قاعـــداً خمـــلاً
ويُتعـــبُ العقـــلَ أفكـــارٌ وحرمـــانُ

ســـلِّمْ أُمـــوركَ للبـــاري وقدرتـــه
وابحـــث فرزقـــكَ مكتـــوبٌ وميـــزانُ

إذا ملكـــتَ مـــن الأقـــوات رزقَ ضـحىً
ومَـــنْ تُعيـــل معـــافى أنـــت ســـلطانُ

واحمـــد إلهـــك واشـــكر فـــضله أبـــداً
واســـتغفر الله يـــأت الـــرزقُ والـــشانُ

خليفـــة الله في الأرض الـــتي بُـــسطتْ
ســـواكَ مـــن أدمٍ والنـــاس ألـــوانُ

ومـــن جميـــع لغـــاتٍ لا تُعـــدّدها
فأبـــدع النطـــق عنـــد الخلـــقِ.. حنّـــانُ

واعلـــمْ بأنّـــك في الـــدنيا رســـولُ هُـــدىً
مكـــرّمٌ في العُلـــى يرعـــاكَ.. منّـــانُ







هـــو الإلـــه حكـــيمٌ في تـــصرّفه
إن قـال كـن للـورى بـالحرف قـد كـانوا

مــا أضــعف الــروح حــين الله كبّلــها
لم يــنجُ مــن قيــده.. إنــسٌ ولا جــانُ

كــأسٌ تُــدار وهــل دفــعٌ لــسكرتها
كــلٌّ يــذوق ومــا للكــأس.. نقــصانُ

يــودّع المــالَ والأحبــابَ ملتمــساً
عفــوَ الإلــه فهــل يرضــاه رحمــنُ؟!

في اللحــد مرقــده قــد غــاب مُنفــرداً
هــلاّ يــردُّ عــذاب القــبر إنــسانُ!!

وإن دعانــا بــنفخ الــصور يجمعنــا
وفي كتــابٍ لكــلّ الخلــق تبيــانُ

هــذا جنــاكم ومــا أســلفتمو عمــلاً
لكــلّ نفــسٍ ضــلالاتٌ وإيمــانُ

فمــن نــأى عــن سبيل الحــق في عَنَــتٍ
وكــان فيــه قــرينَ الــسوء شــيطانُ

يقــوم مــن ثقــلِ الــزلاّت مــضطرباً
جهــنمٌ مــن لظــى الحــصباء بركــانُ

ومــن ســعى للقــاء الله مرتــضياً
فقــد نجــا وببــاب الخلــد رضــوانُ







نـادى هلمــوا إلى قــصرٍ ومرحمــةٍ
وجنّــةٍ ريحهــا مــسكٌ وريحــانُ

وحــورِ عــينٍ براهــا مــن تمرّدهــا
كــأنهنّ مــن المكنــون عقيــانُ

وأنهــرٍ مــن مــشار الــشهد أطيبــه
ومــن خمــورٍ دنــا للــشربِ ظمــآنُ

لبّــتْ ملائكــةٌ خــدّام مــن نزلــوا
والكــلّ ثمــة فرحــانٌ ومــزدانُ

تــأتي بفاكهــةٍ والعــين لم ترهــا
والأُذن مــا سمعــت والعقــل حــيرانُ

مــن كــلِّ صــنفٍ بأطبــاقٍ مذهّبــةٍ
بهــا تــلألأ أعنــابٌ ورمّــان

فاعمــلْ أخــي عمــلاً تُرضــي الإلــه بــه
كــي يُنجينّــك عنــد الله إحــسانُ

صــلِّ الفريــضة واتبعهــا بــسنّتها
إنّ الــصلاة لكــلّ الخــير أركــانُ

واصرف عيونك عن عورات من كشفوا
هــذا لعمــري إلى الأعــراق فتّــانُ

يغــوي القلــوب فــتردي عُــذرَ صــاحبها
والــشرُّ فــوق الثرى المــأمول مــن شــانوا







واحفظ لسانك مِنْ زلاّت مَنْ خسروا

فتحرق الحسناتِ البيضَ نيرانُ

وصُمْ وزكِّ عن الأموال في سعةٍ

وللفقير بمال الخلق سلوانُ

وحجَّ ثمّ اعتمرْ لا تنسَ قائدنا

في (طيبةٍ) فلَه.. في القلب تحنانُ

سلِّمْ عليه إذا كان الوقوف به

ولْيغمرنّك إجلالُ وأشجانُ

سلِّمْ عليه بصوتٍ خافتٍ أدباً

فالمرءُ عند حبيب الله خجلانُ

وارشف رحيق الهوى من نبع مرقده

بين الحبيب وبين العشق شريانُ

وعُبَّ من طيبه.. والدمع منهمرٌ

يشقُّ بُعدُ على العشاق ما عانوا

وقم على صاحبيه الراقدين هنا

بالجنب هم في سنا الإيمان إخوانُ

وثم عرّج على أهل البقيع هوىً

إن كان في وسعك الميسور إمكانُ

تكن سعيداً وممن ناله شرفٌ

في خُلد ربّي وخيرُ الجار (عدنانُ)






يعتبر الباحثان عبد القادر عيَّاش وأحمد شوحان من أهم وأبرز من كتبوا عن منطقة وادي الفرات وتحديداً محافظة دير الزور، وإذا كانت الريادة والسبق للأديب عبد القادر عيَّاش، الذي يعتبر بحق علاَّمة وادي الفرات الأول، فإن الأديب أحمد شوحان يعتبر التلميذ النجيب لأستاذه عبد القادر عيَّاش، وسجل التاريخ ما قاما به بأحرف من نور.

يأسرك الأديب أحمد شوحان بطيبته وتهذيبه الجم وكرمه وعلمه وحبه للعلم والمطالعة والكتابة في معظم الموضوعات، ويأتي على رأسها ما يخص محافظة دير الزور، وبرحيل الأديبين عيَّاش وشوحان تنتظر المحافظة من يخلفهما..

وكل من عرف الأديب أحمد شوحان من أصحاب دور نشر ومكتبات وأصدقاء يعترفون بتلك الصفات الحميدة التي كان يتحلى بها الفقيد أحمد شوحان، وقد فاجأهم رحيله المفجع المباغت، وآلمهم أشد الألم..

لقد كتب الأديب أحمد شوحان في موضوعات عديدة قديمة ومعاصرة وقد زادت مؤلفاته المطبوعة على المئة وخمسين كتاباً؛ وسيفاجأ القراء إذا ما علموا بأن صاحب هذه المؤلفات الكثيرة والغنية لم يكمل تعليمه الجامعي وأنه لا يحمل سوى الثانوية التجارية، ولكن الإنسان لا يقاس بالشهادات التي يحملها، ولنا بالأديب الكبير عباس محمود العقاد المثل الواضح على أهمية التحصيل الذاتي والاعتماد على المطالعة الجادة والبحث الدؤوب وهذا ما ينطبق على أديبنا المرحوم أحمد شوحان، الذي انكب على دراسة كتب التراث العربي والإسلامي، بالإضافة لمطالعته لما تصدره دور النشر الحديثة المحلية

والعربية، مما نراه مفصلاً في سيرة حياته الحافلة والغنية.

أحمد شوحان (١٩٤٤ – ٢٠٠٦)

ولد بدير الزور سنة ١٩٤٤م، ونشأ فيها، ودرس في الكتاتيب القرآن الكريم ولم يكمله، ثم درس المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية التجارية ولم يكمل تعليمه، بسبب انهماكه في دراسة كتب التراث العربي والإسلامي.

درس على الشيخ حسين السراج رحمه الله، وبعد وفاة شيخه السراج في سنة ١٩٦٧م، انكب على المطالعة الغزيرة انكباباً كاملاً، فلا يكاد يُرى إلاّ حاملاً كتاباً، فصار الكتابُ جزءاً منه وهو جزء من الكتاب.

كانت نتيجة قراءاته الغزيرة أن كتب كتباً كثيرة، وقد يسَّر الله له طبع جميع مؤلفاته وتحقيقاته، إلاّ ما لم يتم تأليفه وتحقيقه، أو بين يديه الآن تحت البحث وقيد الإنجاز.

قسّم كتاباته وتحقيقاته لسائر مواسم العمر من القرّاء من أطفال وشباب وشيوخ، فكتب لكل جيل من تلك الأجيال ما يناسبه، وحقّق للباحثين والدارسين عدداً من المخطوطات.

حج إلى بيت الله الحرام سنة ١٩٧٧ وتشرف بزيارة الأماكن المقدسة في الحرمين الشريفين، ثم زار الحجاز مرتين لأداء العمرة سنة ١٩٨١، وسنة ١٩٩١، وزيارات أخرى.

زار بعض البلدان العربية بقصد السياحة وطباعة الكتب مثل لبنان والأردن، وزار إيران بدعوة من وزارة الثقافة للمشاركة في مهرجان الإمام الخميني عام ١٩٩٦. انتخب عضواً في اتحاد الكتاب العرب، وعضواً في جمعيّة البحوث والدراسات، وذلك تقديراً لاهتماماته الكثيرة والمستمرة عن تاريخ دير الزور ومنطقة وادي الفرات، وعن الأدب الشعبي وأدباء المنطقة أحياء وراحلين.

أسلوبه في الكتابة على طريقة السلف الصالح، لا يحب أن يهدي شيئاً من كتبه إلى مسؤول، ولا يحب زيارة أهل الجاه والمناصب، لذا يتهمه أقرانه أو خصومه بأنه منعزل، أو منكمش على نفسه، وعنده الخلوه مع الكتاب خير من الدنيا وما فيها.

يمتاز بالصبر والأناة والحلم، ولربما أعاد العبارة في كتاباته أكثر من عشرين مرة يكتبها ثم يشطبها حتى يستقر رأيه على العبارة الصحيحة المناسبة. بدوي الأخيلة، تعتريه أحياناً حدّة في الحديث.

شارك في مهرجانات وندوات ثقافية وفكرية ومحلية، وحضر عدداً من المؤتمرات السنوية لاتحاد الكتاب العرب بدمشق، وألقى المحاضرات في المراكز الثقافية وفروع اتحاد الكتاب العرب في المحافظات حول: الغزو الفكري، أسباب سقوط الأمة، المرأة في الإسلام، الشورى، الشورى والرأي الآخر، وغير ذلك من المحاضرات الفكرية، مع عدد من المحاضرات عن شخصيات أدبية وتراثية.

حضر عدداً من الندوات التي تعقب المعارض الدولية للكتاب وحول مشاكل الكتاب وقضاياه وهمومه وخاصة في دمشق، حيث يقام المعرض السنوي للكتاب وهو معرض دولي ذو قيمة ثقافية كبرى. زد على ذلك بعض الندوات في بيروت وعمان ودير الزور والرياض.

شارك في الندوة الدولية لآثار الجزيرة السورية التي عقدت بدير الزور من ٢٢ – ١٩٩٦/٥/٢٥. وألقى محاضرة فيها بعنوان (ديار تغلب ودورها السياسي والثقافي في الجزيرة السورية).

بث في كتاباته شيئاً من هموم أمته، وما ابتليت به من طغاة ظلمة، مما جعل بعض كتبه تمنع في بعض الدول العربية، أو لم يسمح لها بالطبع أصلاً فلم تر النور بعد. وتحدّث في إذاعة دمشق عدة مرات.

نشر مقالات كثيرة في المجلات العربية والمحلية التالية: الثقافة، الجندي العربي، جيش الشعب، هنا دمشق، فنون، حضارة الإسلام، نهج الإسلام، الفيصل، المعرفة، الحوليات، الفرات، الثورة، تشرين...

بلغت مؤلفاته المطبوعة أكثر من مئة وخمسين كتاباً وسلسلة بين تأليف وتحقيق منها:

١- سلسلة الأبطال /٥٠/ جزءاً.
٢- غزوات الرسول ﷺ /١٢/ جزءاً.
٣- السيرة النبوية للأطفال /٢٠/ جزءاً.
٤- قصص الأنبياء /١٦/ جزءاً.
٥- قصص القرآن /٢٠/ جزءاً.
٦- المبشرون بالجنة /١٠/ أجزاء.
٧- قصص من التاريخ /٨/ أجزاء.

ومن كتب التراجم بين تأليف وتحقيق ما يلي:

٨- أعلام الفرات /مجلد/.
٩- الخلفاء الراشدون.
١٠-أعلام الفكر الإسلامي /مجلد/.
١١-محمد سعيد العرفي – شيخ وادي الفرات.
١٢-محمد الفراتي – شاعر وادي الفرات.
١٣-سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي – تحقيق.
١٤-تاريخ عمر بن الخطاب، لابن الجوزي – تحقيق.
١٥-الإمام النووي /رسالة/.
١٦-الغزالي والإحياء /نقد/
١٧-أبو الهدى الصيادي.
١٨-محمد الفاتح.
١٩-عبد القادر الجيلاني.
٢٠-العز بن عبد السلام، وأبو شامة.
٢١-ابن حزم الأندلسي، والإمام الطرطوشي.
٢٢-أبو حنيفة، والإمام مالك.
٢٣-الأفغاني، والكواكبي.
٢٤-الإمام البخاري، والإمام مسلم.
٢٥-الحسن البصري، وسفيان الثوري.
٢٦-الإمام الشافعي، وأحمد بن حنبل.
٢٧-ابن الجوزي، والإمام الشاطبي.
٢٨-ديوان عمر بن عدوان وقصة حياته، جمع ودراسة.

ومن كتب أدب وتاريخ وادي الفرات السوري ما يلي:

٢٩-الأمثال الفراتية /مجلد/.
٣٠-معجم العشائر الفراتية /تحقيق/.
٣١-ديوان العتابا الفراتية /جمع وتحقيق/.
٣٢-ديوان عبد الله الفاضل وقصة حياته /جمع ودراسة/.
٣٣-تاريخ دير الزور.
٣٤-خرمة (شاعرة البكاء في وادي الفرات).
٣٥-طرائف عمر الديري (شاعر الغناء الشعبي في دير الزور)

ومن الرسائل السلفية المحققة ما يلي:

٣٦- لمعة الاعتقاد لابن قدامة /تحقيق/.
٣٧- النصيحة في الأوعية الصحيحة، لابن قدامة.
٣٨- لفتة الكبد في نصحة الولد لابن الجوزي.
٣٩- شرح الصدور في رفع القبور للإمام الشوكاني.
٤٠- رفع الريبة في الغيبة للإمام الشوكاني.
٤١- الدواء العاجل في دفع العدو الصائل للإمام الشوكاني.
٤٢- إيمان العرب في الجاهلية للإمام البجيرمي.
٤٣- رسالة مالك إلى هارون الرشيد.
٤٤- تنبيه النائم الغمر إلى مواسم العمر لابن الجوزي.
٤٥- رسائل الغزالي /٢٦/ رسالة محققة بحجم الكف.
٤٦- رسائل ابن قيم الجوزية /٢٤/ رسالة بحجم الكف.
٤٧- هدية السلطان إلى مسلمي بلاد اليابان للإمام المعصومي /تحقيق/.
٤٨- أذكار اليوم والليلة من القرآن وصحيح السنة. لكاتب مجهول /تحقيق/.
٤٩- صيد الخاطر لابن الجوزي /مجلد/ تحقيق.
٥٠- أحكام النساء لابن الجوزي /مجلد/ تحقيق.
٥١- جواهر صحيح البخاري /مجلد/ اختصار وتعليق.
٥٢- جواهر صحيح مسلم /مجلد/ اختصار وتعليق.
٥٣- المبشرون بالجنة /مجلد/.
٥٤- غزوات الرسول /مجلد/.
٥٥- الروض البسّام في أشهر البطون القرشية في الشام لأبي الهدى الصيادي /تحقيق/.
٥٦- الكبائر للإمام الذهبي /تحقيق.
٥٧- تعليم الصلاة.
٥٨- صلاة التراويح طبعتان، قديمة عام ١٩٦٧ ومختصرة محققة حديثة.
٥٩- مولد النبي للإمام البرزنجي /تحقيق/.
٦٠- هداية الرحمان في تجويد القرآن /مراجعة وإشراف/.
٦١- الأذكار للإمام النووي /تحقيق/ تحت الطبع.

وغير ذلك من الكتب التي هي تحت التأليف والتحقيق والدراسة.

إن متوسط ما يقرأ في اليوم والليلة يزيد على عشر ساعات وذلك منذ أكثر من ربع قرن؛ وأصبح عضواً في اتحاد الآثاريين والمؤرخين العرب عام ٢٠٠٥م.

وسافر إلى روسيا البيضاء في ٢٠/١٢/٢٠٠٦م.

كما كتب عشرات المقالات عن أدباء وعلماء أفاضل من منطقة الفرات ومن مختلف المحافظات السورية والعربية، أمثال: الدكتور أحمد الرحبي، وعبد الجبار الرحبي، وأحمد الراوي، وتوفيق قنبر والشيخ عبد القادر الأرناؤوط، والأستاذ الشاعر مدحة عكاش صاحب مجلة الثقافة والدكترو إحسان هندي وغيرهم.

وقد توفاه الله تعالى في نهاية عام ٢٠٠٦، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه؛ فقد كان محباً للجميع ووفياً لزملائه وأصدقائه ومعارفه، وكتب عن بعضهم فهل يلاقي ما تحلى به من الحب والوفاء من الأصدقاء؟!